ليو تولستوي

اعترافات شبابي

ترجمة

نخبة من المترجمبن

الكتاب: (مذكرات) اعترافات شبابي

الكاتب:ليو تولستوي

ترجمة : نخبة من المترجمبن

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

تولستوي، ليو
(مذكرات) اعترافات شبابي / ليو تولستوي ، ترجمة : نخبة من المترجمين
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٣٣ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٢ – ٩٠ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان　　　　رقم الإيداع : ٥٢٤١ / ٢٠٢٠

اعترافات شبابي



مؤلف الكتاب

ليو تولستوي (١٨٢٨- ١٩١٠)

رجل فذ في تاريخ الآداب العالمية، مقامه في عالم القصة كمقام "ميخائيل أنجلو" و"ليوناردو فنشي" في عالم الرسم والتماثيل. فحل بين الفحول في إنتاجه الكبير الرائع، ولكنه ليس روائياً فحسب، بل هو أيضاً صاحب رسالة، وصاحب مذهب في القصة، وصاحب قلب كبير وحس دقيق عميق.

اعتنق مبادئ السلام والرحمة، وهاله أن تصبح رسالات الأنبياء التي قصد بها أن تؤلف بين القلوب، من أقوى أسباب تنافر الناس وتألبهم بعضهم على بعض بأشد العداوة والبغضاء.

وهاله أن الأوطان التي يفخر بها الإنسان، وإليها يحن، قد جعلت من أمنا الأرض التي تجمعنا على ثديها أحياء، وفي جوفها أمواتاً، مثاراً للتنازع والتطاحن، من أجل منفعة زائلة وجاه مغصوب يقوم على الغبن والعدوان..

وهكذا انقلب تولستوي سليل بيت الإمارة والنبل والثراء العريض والضياع المترامية الأطراف مبشراً بالعدالة والمساواة وبأن الأرض ليست ملك أحد، وإنما هي حل لمن يحلب شطريها بساعدهن وبان المحبة

والسلام يجب أن يسودا الناس بحيث تتحرر الشعوب من رق الاستبداد والاستغلال على السواء.

وجرد الرجل نفسه لرسالته، وجعلها هدفا لرواياته الطوال والقصار.. بعد أن طبقها على حياته الخاصة. وكتب مؤلفات في الاجتماع والنقد الفني، هي للأسف أقل من رواياته في كل شيء، فهي كلمات رجل طيب متحمس لما يقول، ولكنها لا تصمد للمناقشة العقلية. فإذا خلد تولستوي– وإنه لخالد!– فيما كتب من رواياته، وبفنه القصصي الممتاز لا بدعواه في الفلسفة والنقد الأدبي.

ولكنها الشهرة الذائعة على ألسن السواد من الناس. ومشاكل الحياة في مطلع هذا القرن، وأواخر القرن السابق جعلت الناس يتنبهون إلى صيحة هذا الرجل في سبيل الرحمة. ويأخذهم الانبهار بما يكتب في الصحف إلى "ابن عمه" قيصر روسيا، وما أدراك يومئذ ما هو! فيقول له في خطاباته المفتوحة:

"أخي نيقولا!" ثم يعظه في جرأة ومضاء، فتحول مكانة "نبي الجيل ورسول السلام" في الأدب العالمي، والقومي دون حسابه بما يحاسب عليه غيره.

ولد تولستوي عام ١٨٢٨، من أسرة عريقة في الحسب طائلة الثراء، وتوفي عام ١٩١٠، وهو في الثانية والثمانين من عمره، ولقد قضي هذا العمر الطويل يكتب ويؤلف، فأصدر في شبابه العديد من

الكتب: "الشباب، اللقاء، القوزاق، سباستيول، الجنديان الفارسان، الغزو" ولكنه في هذه المؤلفات لم يكن قد اهتدى بعد إلى الرسالة الغامضة المستسرة في أعماق نفسه، والتي لم تكن قد تكشفت له، وأسفرت عن نفسها. كانت هذه الرسالة لا تنفك مبهمة بين جوانجه، يشملها الضباب، فلا تبين على حقيقتها، وأن كانت تومض بعض الوميض الحين بعد الحين.

ثم ينطلق في رحلتين: أحدهما في البلاد الروسية وقراها ومزارعها، يخالط الزراع ويحادثهم. والثانية في أنحاء أوروبا وربوعها، يرى نظمها ومعالمها، ويتصل بأبنائها. وتبدأ معالمه تتضح شيئاً فشيئاً، ويعود إلى بلده، ويستقر فيه، ثم يقدم على عمل، لم يسبق أن أقدم عليه غيره، فيوزع أراضيه الواسعة وضياعه الكبيرة على الفلاحين وأبناء بلدته، ويبقى لنفسه ما يسد الرمق، ويقيم الأود، ثم يعتكف في صومعته أو محرابه، يستوحي قلبه وضميرهن ويخط ما يمليه عليه هذا القلب الرحيم، وذلك الضمير الحي، ويروح يدعو إلى السلام، وإلى الأمن والدعة، وإلى الإخاء بين الناس، وإلى نبذ الحروب، فالدنيا فسيحة تتسع للجميع، ولكنها تضيق بالمطامع والأهواء، والشرور والآثام. وانطلق يدعو إلى الوئام بين الأفراد، وبين الدول والشعوب، وإلى الإصلاح الاجتماعي ورفع مستوى الشعوب حتى تستطيع أن تحيا الحياة الكريمة.

ولأمراء أن ارتفاع مستوى الحياة الاجتماعية التي دعا إليها تولستوي يجب أن يسبق تقدم العلم. ففي ارتقاء الحياة الاجتماعية ما

يصلح الأخلاق ويصفي النفوس، ويتيح للمثل العليا أن تحيا وأن تبرز، وتأخذ مكانتها في العالم، أما العلم وحده فهو سلاح في يد شرير.

لقد بهر الناس هذا الإخلاص في الدعوة، وهذا الإشراق في الأدب، وهذه الروعة في التصوير ولمس أوتار النفوس، فاقتدى به "مهاتما غاندي" سليل بيت الحكم والجاه في الهند، وصاحب الثراء، وربيب الترف، فخلع هذا كله، ونزل عنه ووهب مزرعته للفلاحين، وأخذ يزرعها معهم على سنة "النبي الجديد" وقد أسماها "مزرعة تولستوي" تنويها بذكرى الرجل العظيم، واعترافا بأستاذيته.

ذلكم هو "ليو تولستوي" النبي الروائي، صاحب الدعوة إلى الإخاء والوئام والسلام، الذي كتب له أن يشتهر بالرسالة فينتهي الأمر بخلوده بالرواية دون الفلسفة الاجتماعية التي يحسب له فيها ثواب النية الصادقة، والقلب الكبير.

وهو وأن كان لم يوفق في وضع خطوط رسالته، فقد استطاع أن ينشرها بين الناس، ويدعو إليها، ويبشر بها، ويهيب بالناس أن يستمسكوا بها، وحسبه هذا فضلا، وأنه لفضل عظيم جليل.

الفصل الأول

التأهب للجامعة

لم تبق سوى شهور قليلة على دخولي الجامعة، وكنت منصرفاً إلى الدراسة بجد، وأجد في دروسي مع أساتذتي الذين يعدونني لدخول الجامعة لذة، وكنت أتأهب لدخول كلية الرياضيات، وقد اخترتها في الحقيقة لا لشيء إلا لأفتتاني بمصطلحات الرياضة من قبيل جيب الزاوية، والتفاضل والتكامل وما إلى ذلك.

وأنا أقصر قامة من أخي فولوديا الذي يكبرني بسنة وبضعة شهور. بيد إني كنت عريض المنكبين كثير اللحن عاطلاً من المزايا الواضحة، وكان هذا أكبر ما يشغل بالي فأحاول على الدوام أن أبدو ذا أصالة في سلوكي بحيث أتميز بشيء.

لقد تغيرت طباع كثيرة من طباعي، فكففت منذ زمن بعيد عن مراقبة حجرة نوم الخادمات، وصرت أخجل من التلصص وراء الأبواب، وانتهى تعلقي بخادمتنا ماشا، بعد ما تبينت غرامها بخادمنا القديم وسيلي، وقد انتهى ذلك الغرام بزواجهما، وكنت أنا الذي حصلت لهما من أبي على الإذن بذلك الزواج.

وقصارى القول إني أخذت أتخلص من نقائص الطفولة والمراهقة، ما عدا نقيصة واحدة سيظل أذاها لاحقا بي مدى حياتي، وتلك النقيصة هي جنوحي إلى التفلسف.

وكان أصدقاء أخي الكبير فولوديا يسخرون من قامتي القصيرة وصغر سني. وكان ذلك يجرح كبريائي، ومع هذا كنت أحب الجلوس في حجرة أخي فولوديا حين يزوره أصحابه كي أرقب في صمت كل ما يجري هناك.

وكان أكثر هؤلاء الضيوف تردداً على فولوديا ضابط يقال له دبكوف، وطالب اسمه الأمير نخليودوف. أما دبكوف فقصير بارز العضل أسمر اللون تجاوز مقتبل الشباب، قصير الساقين، بيد أنه مليح المنظر دائم الطرب والمرح، وهو من أولئك الأشخاص محدودي الأفق الذين يرجع ظرفهم إلى هذه الصفة، صفة ضيق الأفق. فهو عاجز عن النظر إلى الأشياء إلا من جانب واحد، ويمكن أن يستغرقه أو يستهويه أي شيء من غير مقاومة، وأحكام أمثاله وآراؤهم ضالة ذات جانب واحد. بيد أن قلوبهم طيبة مفتوحة وفيهم جاذبية آسرة، حتى أن ضيق أفقهم وأنانيتهم نفسها تغتفر لهم وتبدو من عناصر جاذبيتهم. يضاف إلى هذا أن دبكوف كان يسحر فولوديا ويسحرني بمظهره العسكري، وبالسن التي تقترن لدى الشبان دائماً بالاحترام والاعتبار.

والحق أن دبكوف كان رجلاً معتبراً فعلا، ولم يكن يضايقني سوى

أن فولوديا كان يخجل في بعض الأوقات –في وجوده– من بعض أعمالي البريئة وتصرفاتي الساذجة، ومن صغر سني.

أما نخليودوف فلم يكن وسيما، كانت عيناه صغيرتين رماديتي اللون، وجبينه ضيقاً بارزاً، وذراعاه وساقاه على قدر من الطول بعيد عن كل تناسب ولا يمكن وصفه بالجمال، فليس في هذا الأمير من علامات الوسامة سوى قامته المديدة ولون محياه الرقيق المشرب بحمرة وأسنانه الرائعة الحسن، وكانت ابتسامته المعبرة ولمعان عينيه يكسبانه تميزاً وحيوية فائقة. والحق أن نظرة عينيه وابتسامته كانت تستوقفان النظر سواء أعبس أو استولى عليه الشرود.

ويظهر أنه كان خجولاً جداً لأن أتفه الأمور كان يكفي لتضرج محياه بحمرة شديدة حتى أذنيه، ولكنه لم يكن خجلا صرفا كخجلي، بل كلما ازدادت حمرته ازداد تعبير وجهه إصراراً فكأنه حانق على نفسه لما يبديه من ضعف.

وكان الأمير فيما يبدو على صداقة وثيقة بفولودياودبكوف، مع أن الصدفة المحضة هي التي جمعت بينهم، فهم متباينون أتم التباين، فعلى حين كان فولودياودبكوف يتخوفان من كل شيء يمت بصلة إلى الجد في التفكير أو المناقشة أو الشعور، كان نخليودوف ذا طابع حماسي، لا يتردد في خوض المناقشات الفلسفية غير عابئ بالسخرية. ويؤثر فولودياودبكوف الكلام عن حبيباتهما، وكثيراً ما أغرما بغير مقدمات

بفتيات كثيرات، وربما أغرما بفتاة واحدة بعينها، فإذا لمحا من طرف خفي إلى غرام نخليودوف بفتاة ذات شعر أحمر من غير أن يذكرا اسمها، كان ذلك كافياً لإغضاب الأمير المديد القامة.

ولم يكن من عادة نخليودوف أن يسخر من أحد، ولذا كان يغضب إذا تهكم صاحباه ولو تلميحا على عمته التي كان يجلها أجلالاً عظيماً.

ولاحظت أن فولودياودبكوف كانا يخرجان معا إلى مكان ما بعد العشاء، ولا يصحبهما نخليودوف ولذا كانا يسميانه بالفتاة الخجول، والحق أن الأمير نخليودوف راعني منذ أول وهلة بحديثه ومظهره معا، إلا أن شخصيته وشكله وسلوكه الخجول كسلوكي لم يفز بإعجابي في البداية، ولعل السبب هو هذا التشابه بيننا في المسلك وفي الخجل.

ثم إنني كرهت أيضاً نظرته المتعالية وعدم اكتراثه الواضح بي، ولذا كثيراً ما حاولت أن أقهره في المناقشة كي أذل كبرياءه وأظهره على ذكائي، ولكن خجلي كان يعرقل مسعاي هذا.

مناقشات

ولما دخلت كالعادة حجرة فولوديا بعد انتهائي من دروس المساء، وجدته مستلقيا فوق الأريكة، متكئا على مرفقه يطالع رواية فرنسية، فتطلع نحوي لحظة ثم استأنف القراءة، وهو تصرف طبيعي وبسيط للغاية، بيد أنه دفع الدم إلى وجهي، فقد خيل إلى أن نظرته تسألني لماذا

أتيت، وأن السرعة التي بها نكس رأسه دليل على رغبته في إخفاء معنى تلك النظرة عني، وكان الميل إلى تأويل أبسط الحركات والتصرفات من دأبي في تلك السن. وسرت إلى المنضدة وتناولت كتابا، ولكن قبل أن أشرع في القراءة خطر لي أن من السخافة ألا نتبادل الكلام ونحن لم نتقابل قبل هذه اللحظة طول النهار، فسألته:

– هل ستكون في البيت الليلة؟

– لا أدري. لماذا؟

– إنما هو سؤال خطر لي.

ولما تبينت فشلي في إنشاء محادثة بيننا، تناولت كتابي وشرعت أقرأ، ومن العجيب أنني وفولوديا يمكن أن نقضي ساعات طويلة صامتين ونحن بمفردنا، أما إذا حضرنا ثالث حتى ولو لزم الصمت، فوجوده كاف لاشتجار أفانين الحديث المنوعة بين كلينا، فقد كنا نشعر أن كلا منا يعرف أخاه أتم المعرفة، وهذه المعرفة التامة تمنع من المكاشفة الحميمة: فشأنها في ذلك شأن المعرفة السطحية سواء بسواء.

وسمعنا صوت دبكوف يسأل من الردهة:

– هل فولوديا في البيت؟

فقال فولوديا وهو ينزل قدميه إلى الأرض ويضع الكتاب على

المنضدة:

– نعم.

فدخل دبكوفونخليودوف الحجرة بمعطفيهما وقبعتيهما:

– هل ستأتي معنا إلى المسرح؟

فأجاب فولوديا وقد أحمر وجهه:

– كلا، فليس عندي وقت.

– يا لها من فكرة! تعال من فضلك.

– ليست لدى تذكرة.

– يمكنك الحصول على ما شئت من التذاكر عند الباب.

فقال فولوديا وهو يغادر الحجرة هازا كتفيه:

– انتظرا، سأعود في الحال.

وأدركت أن فولوديا يود الذهاب إلى المسرح ولم يكن رفضه إلا لأن المال يعوزه، ولم يكن خروجه إلا ليقترض من الساقي خمسة روبلات إلى أن يقبض مرتبه التالي، وقال دبكوف وهو يمد إلي يده:

– كيف حالك أيها الدبلوماتي؟

وكان أصدقاء فولوديا يسمونني الدبلوماتي لأن جدتي كانت تتحدث بعد العشاء ذات ليلة عن مستقبلنا فقالت أن فولوديا سيكون جنديا، أما أنا فتتمنى أن تراني دبلوماتيا رشيقاً أنيقاً في ملابس السهرة السوداء.

وسألني نخليودوف:

– إلى أين ذهب فولوديا؟

فأحمر وجهي وقد خطر لي أنهم ربما خمنوا سبب خروج فولوديا من الحجرة، وقلت:

– لست أدري.

– أظنه خاوي الوفاض، أليس كذلك؟

فلما ابتسمت ابتسامة تحمل معنى الإيجاب صاح:

– يا لك من دبلوماتي! وأنا أيضا خاوي الوفاض، أمعك نقود يا دبكوف؟

فأجاب دبكوف وهو يخرج كيسه ويتحسس بعناية نقوداً صغيرة الحجم، قليلة العدد بأنامله القصيرة:

– سنرى، ها هي ذي قطعة ذات خمسة كوبكات، وها هي ذي قطعة ذات عشرين كوبكا... سحقا لها!

وأتى بيده حركة مضحكة، وإذا فولوديا يدخل الحجرة فسألاه:

– ماذا وراءك؟ هل سنذهب؟

– كلا...

فقال نخليودوف:

– ما أسخفك! لماذا لا تقول أنك بلا نقود؟ خذ تذكرتي.

– وأنت؟

فقال دبكوف:

– سيذهب إلى مقصورة (لوج) ابن عمه.

– بل سوف لا أذهب إطلاقاً.

– لماذا؟

– لأني لا أحب كما تعلم أن أجلس في مقصورة.

– ولماذا؟

– لا أحب ذلك، أشعر بضيق وقلق.

– هذا دأبك! ولست أفهم كيف تشعر بالضيق والقلق حيث يرحب الجميع بوجودك، هذا سخيف يا عزيزي.

– وما حيلتي في خجلي؟.. أنا واثق إنك لم يحمر لك وجه طول حياتك، في حين يحمر وجهي لأتفه التوافه!

وأحمر وجهه فعلا وهو يقول ذلك، فقال له دبكوف في تعال:

– أتعرف من أين يأتي خجلك هذا؟.. من فرط حبك لنفسك يا عزيزي.

فقال نخليودوف محتجاً على هذه الغمزة:

– فرط حبي لنفسي؟ وبالعكس، أن خجلي سببه قلة كبريائي، فأنا أشعر على الدوام إني ثقيل مزعج يضيق بي الناس.

وقال دبكوف:

– هيا ارتد ثيابك يا فولوديا...

واستطرد نخليودوف:

– وهكذا كثيراً ما يحدث لي...

بيد أن دبكوف لم يعد يعيره سمعه، بل راح يدندن لحناً شائعاً.

– لن أسكت على هذا، وسأثبت لك أن الخجل ليس سببه حب الذات على الإطلاق يا دبكوف...

– ستثبت هذا بأن تأتي معنا...

– قلت إني سوف لا أذهب.

– إذن تبقى وتدلي بحجتك للدبلوماتي، ويتولى هو رفع الخلاصة إلينا عندما نعود.

فقال نخليودوف بعناد طفلي:

– وأنا أيضا سأرفع إليكما الخلاصة، هيا وعجلا بالعودة.

ثم سألني وهو يجلس بجواري:

– ما رأيك؟ أتظن بي الكبر؟

ومع أن رأيي فيه كان قائماً، إلا أن سؤاله المفاجئ أخذني على غرة فتريثت قليلا قبل أن أجيبه وأنا أشعر بصوتي يختلج ووجهي يحمر لأن الوقت قد حان كي أبين له إنني ذكي ولست فدما كما كان يظنني.

– أعتقد أن كل إنسان فيه كبرياء، وأن كل ما يأتيه المرء من الأعمال يأتيه بدافع من كبريائه أو كرامته.

فقال نخليودوف باسماً ابتسامة خلتها تنطوي على استخفاف:

– وما هي الكبرياء في رأيك؟

– الكبرياء هي الاعتقاد الراسخ لدى الشخص أنه أفضل وأحكم من سائر الناس.

– ولكن كيف يرسخ هذا الاعتقاد لدى كل إنسان؟

– لست أدرى هل هذا الاعتقاد صواب أم خطأ، ولكن ما من أحد يعترف به صراحة، وأنا شخصياً مقتنع في قرارة نفسي الآن إنني أحكم من سائر أهل الدنيا، وأنا واثق أنك مقتنع بهذا الرأي نفسه.

– كلا، فأنا على الأقل أعترف إنني قابلت أشخاصا أقررت لهم بتفوقهم علي في الحكمة وسداد الرأي.

– محال!

فحملق نخيلودوف في بإمعان، وقال:

– أتظن هذا حقا؟

فخطرت لي عندئذ فكرة، صارحته بها على الفور:

– سأثبت لك رأيي، لماذا نحب أنفسنا أكثر مما نحب سائر الناس؟ ذلك لأننا نعتبر أنفسنا أفضل من سائر الناس وأجدر منهم بالحب، فإذا اعتبرنا الآخرين أفضل منا وجب إذن أن نحبهم أكثر مما نحب أنفسنا، وهذا لا يحدث مطلقا، وحتى إن حدث، فإنه يعزز رأيي على كل حال.

وابتسمت ابتسامة مطاولة ومجاملة عن غير قصد، وظل نخليودوف صامتا برهة ثم قال بابتسامة عذبة تفيض طيبة وصفاء سعدت بها سعادة مفاجئة:

– لم أكن أحسبك على هذه البراعة!

والمديح له تأثير قوي لا على العواطف فحسب، بل وعلى عقل الشخص الذي ينصب عليه الثناء أيضاً، ولذلك شعرت تحت تأثير هذه الكلمة إنني أذكي مما كنت، وأن الأفكار تنثال على في سرعة لم أعهدها.

وانتقلنا، دون أن نشعر، من موضوع الكبرياء إلى موضوع الحب، وكانت المناقشات في هذا الموضوع بحراً بلا انتهاء، وبدت لنا أتفه الآراء ذات مغزى عظيم بسبب ما نشأ بيننا من المودة والتوافق الروحي، فهذا التوافق الروحي من مزيته أن يؤدي لمس أي وتر في أحد الشخصين

إلى تجاوب كتجاوب الصدى في الشخص الآخر، وهكذا تبادلنا اللمسات الذهنية في مناقشاتنا، وأحسسنا أن الوقت والألفاظ لا تكفي للتعبير عما في أعماقنا من أفكار وخواطر.

بداية الصداقة

ومنذ تلك الليلة نشأت علاقات قد تكون غريبة ولكنها طيبة جدا ومحببة إلى نفسي بيني وبين ديمتري نخليودوف ففي وجود الغرباء كان لا يكاد يعيرني التفاتا، حتى إذا صرنا وحدنا جلسنا في ركن هادئ وشرعنا نتناقش فننسى مرور الوقت وننسى كل شيء حولنا.

لقد تحدثنا عن الحياة المستقبلية، وعن الفنون وعن الحكومة والزواج وتربية الأطفال، ولم يخطر ببالنا مطلقاً أن كل ما جري على لساننا كان هراء فظيعاً، فكل قوي النفس في وقت الشباب تكون متجهة نحو المستقبل، وهذا المستقبل مشحون بالحيوية والتنوع والأمل، الأمل القائم لا على تجارب الماضي، بل على إمكانيات موهومة للسعادة، وهذا الوهم في حد ذاته كاف في تلك السن للحبور، متى كان وهماً مشاعاً بين نفسين متقاربتين.

وكانت مناقشاتنا ميتافيزيقية في بعض الأحيان وكان يستهويني أمعانا في التجريد إلى أن نعجز عن التعبير عنها بألفاظنا العادية، فنعترف بذلك العجز ونتوقف عن التحليق في تلك الأجواء الفكرية العليا.

وحدث في فترة المهرجان أن استغرقت الملاهي المتباينة نخليودوف، حتى إنه رغم حضوره إلى البيت جملة مرات في اليوم كان لا يكلمني إطلاقاً، وآلمني منه هذا السلوك حتى عدت إلى رأيي الأول فيه وتربصت لفرصة أريه فيها أني غير حريص على صحبته إطلاقا ولا أكن مودة خاصة له.

وفي أول مناسبة بعد انتهاء مهرجان المرافع أبدى رغبة في الحديث معي، فقلت له إني مشغول بدروسي ثم صعدت إلى الطابق العلوي حيث حجرة الدراسة، ولكن بعد ربع ساعة انفتح باب الحجرة ودخل نخليودوف، وسألني:

– هل يضايقك دخولي؟

فأجبته رغم رغبتي في التشاغل عنه:

– كلا...

– إذن لماذا غادرت حجرة فولوديا؟ إننا لم نجلس للحديث معا منذ زمن طويل، وقد تعودت هذه الأحاديث حتى أحسست أن شيئا ينقصني.

فزال ضيقي على الفور وعاد ديمتري في نظري ذلك الإنسان الرقيق الكذاب، وقلت له:

– لعلك تعلم لماذا انصرفت...

فأجابني وهو يجلس بجواري:

– ربما، ولكن تستطيع أنت أن تقول السبب يقينا لا تخمينا.

– سأخبرك إذن، لقد خرجت لإني كنت ساخطاً عليك... لا ساخطاً بالضبط، بل متضايقا، وأقول لك بصراحة إنني أخشى أنك تضمر لي حتى الآن الاستهانة لحداثة سني.

فأجاب على ذلك الاعتراف بابتسامة رقيقة هاشة وقال:

– أتعرف لماذا أصبحت قريباً إلى نفسي؟ لماذا أحبك أكثر مما أحب من أعرفهم أكثر منك وتجمعني بهم أمور كثيرة مشتركة؟ لقد عرفت هذا الآن، فأنت متمتع بمزية عجيبة نادرة... الصراحة.

– أجل، فأنا أقول دائماً كل ما يخجلني الإقرار به، ولكني لا أقوله إلا لمن أثق بهم.

– هذا صحيح، ولكن لكي تثق بشخص يجب أن توليه مودتك وصداقتك حقا، ونحن لم نصبح صديقين بعد يا نقولا، إنك تتذكر ولاشك أننا تناقشنا في الصداقة، ولكي نكون صديقين بمعنى الكلمة يجب أن يثق كل منا بالآخر.

– إني أثق بأنك لن تخبر أحداً بما أقوله لك بصفة خاصة، ولكن أهم الأفكار والخواطر هي تلك التي لا يمكن أن يكاشف أحدنا بها صاحبه.

– يا لها من أفكار بلهاء! أتدري ماذا خطر لي يا نقولا؟

ونهض من مقعده وجعل يفرك يديه باسماً

– هيا نفعلها وسترى أنها ستجدي على كلينا!.. هيا نعاهد نفسينا أن يعترف كل منا لصاحبه بكل شيء فنعرف بذلك كل شيء ولا يداخلنا الخجل، ولكيلا نخشى الغرباء، هيا نتعهد أيضاً ألا نبوح لأحد بما بيننا من أسرار.

وتم العهد، وسيتضح فيما بعد ما ترتب عليه.

ولئن قيل أن كل علاقة فيها السالب والموجب، فيها الشخص الذي يحب، والشخص الذي يدع الآخر يحبه، فيها الشخص الذي يقبل، والشخص الذي يقدم خده للتقبيل، فقد كنت أنا الذي قبلت، وكان ديمتري هو الذي قدم وجنته لقبلتي، ولكنه كان أيضاً على استعداد لتقبيلي.

كان حبنا متساوقا، لأن كلا منا كان يقدر صاحبه وبعرفه على حقيقته، بيد أن هذا لم يمنع من ممارسة نفوذه على ومن امتثالي لذلك النفوذ.

والواقع إنني بتأثير نخليودوف كنت أعتنق آراءه من غير أن أدري، ولباب تلك الآراء عبادته المدلهة بمثل الفضيلة العليا، والإيمان بأن الإنسان ينبغي أن يطلب الكمال لنفسه طلباً متواصلاً، ثم إيمانه بإصلاح البشرية كافة والقضاء على جميع الرذائل ووجوه الشقاء، وبدا ذلك لي أمراً ممكناً سهلاً، حتى اعتقدت أنه من اليسير أن يصلح المرء نفسه ويكتسب جميع الفضائل وأن يغدو سعيداً.

والله أعلم كم كانت آمال الشباب الشامخة هذه سخيفة مضحكة أو سائغة معقولة، وهو وحده يعلم من المسئول عن حبوطها.

الربيع

كان ديمتري يؤمن بأن واجب الإنسان الأول هو السعي إلى الكمال الخلقي، وأن ذلك الكمال سهل يسير أبدى، وشرعت بتأثير تلك الآراء أرسم الخطط الرائعة لمستقبل خلقي ناشط، وفي الوقت نفسه استمرت حياتي تسير على نهجها المضطرب الكسول.

ومعنى ذلك أن أفكار صديقي المعبود ديمتري التي كنت أديرها في رأسي وأقلبها في أحاديثي معه لم تكن تروق لذهني فحسب، من غير أن تعتنقها مشاعري، ثم حان لهذه الأفكارأن تتدفق في ذهني بقوة وحيوية بعد أن استولت على وجداني فروعني ما أضعته من وقت قبل ذلك ورغبت في تطبيق تلك الآراء على الفور، بل في التو واللحظة، منتويا في عزم ألا أحيد عنها مدى العمر.

ومنذ ذلك الوقت شعرت بابتداء مرحلة الشباب عندي، وكانت سني عندئذ ست عشرة سنة تقريباً، والمعلمون دائبون على تلقيني الدروس توطئة لدخول الجامعة، وكان مؤدب طفولتي سان جيروم يرقب تقدمي في الدراسة، وفيما عدا ذلك كان كل ما يشغلني هو التفكير المفكك الحالم في وقت وحدتي، أو التمرينات البدنية التي كان هدفي منها أن أغدو أقوى رجل في العالم، أو التجول بغير هدف وعلى غير هدى في الحجرات ولاسيما في الدهليز المؤدي إلى مخدع الخادمات، أو التطلع إلى نفسي في المرآة، وكنت أخرج من ذلك التطلع دائماً ضيق النفس، لا لأن مظهري كان عاديا فحسب بل لأن وجهي لم يكن معبراً عن ذكاء أو نبل، فملامحي ملامح شخص عادي من الاغمار، وكانت عيناي الصغيرتان الرماديتان تنمان عن بلادة لا توقد، ولاسيما حين انظر في المرآة. ومع إنني كنت قوياً جداً بالنسبة لسني، فقد كانت ملامحي رخوة لا تدل على بأس فسحنتي أشبه ما تكون بسحن الموزيك (الفلاحين عبيد الأرض) ولي كفان كبيرتان جداً وقدمان ضخمتان، وكم كان يبدو لي ذلك في تلك السن مدعاة للهوان.

وفي عام دخولي الجامعة جاء عيد الفصح في أواخر أبريل فتأجلت الامتحانات التي تعقد لقبول المستجدين إلى ما بعد ذلك.

وكان الجو عليلاً دافئاً مدة ثلاثة أيام بعد انقطاع الثلوج وذوبانها فلم نشاهد كتلة واحدة من الثلج في الشوارع، ونقط الماء الأخيرة تقطر من سقوف البيوت، والبراعم تطل بواكيرها من بين فروع الشجر في

حديقتنا الأمامية، وكان الممر في الفناء قد جف والعشب الأخضر أخذ ينبت هناك بالقرب من الحظائر ومن بيت شقوق الحجارة في الأبنية. كانت هذه الفترة من الربيع هي أشد الأوقات تأثيراً في نفس الإنسان، فالشمس مشرقة ولكنها ليست شديدة الحرارة، النباتات تتنفس في الهواء فتشيع الجدة والحياة الوليدة، وحتى السحب التي تلوح في تلك السماء الزرقاء الحانية كانت ذات تكوين شفاف.

وخيل إلي –لست أدرى لماذا– أن تأثير هذه الأيام الأولى من الربيع أقوى وأوضح في المدن الكبرى، وكنت واقفاً بجوار النافذة أحل مسألة جبر طويلة على السبورة، وبجواري وقف الخادم ينزع المسامير عن النوافذ المطلة على الحديقة الأمامية فيشتت ذهني بضجته، وكنت في حال من الضيق سيئة، واكتشفت إني أخطأت في بداية الحل الطويل فيجب أن أعيده من البداية، وبحثت عن الطلاسة فلم أجدها، وكان صوت الخادم وهو ينزع المسامير يمزق أعصابي فشعرت برغبة في الشجار مع أي إنسان، وألقيت الطباشير وكتاب الجبر من يدي ورحت أذرع الحجرة ذهاباً وإياباً، وفجأة تذكرت إنني في هذا اليوم سأذهب للاعتراف وتناول الأسرار المقدسة فينبغي أن أتجنب مقارفة الخطايا، وعلى الفور سرت السكينة والرقة إلى نفسي، وتلاشى السخط على نيكولاي الخادم فاقتربت منه وقلت له بأرق صوت:

– دعني أساعدك يا نيكولاي.

وأجدي على ذلك مزيداً من سلام النفس، وساعدت نيكولاي في حمل الأخشاب التي كانت تسد النوافذ إلى المخزن وبي رغبة في إجهاد نفسي.

ولما فتحت الشبابيك دخل الهواء الطلق إلى الحجرة، حاملا معه أصداء المدينة وزقزقة العصافير وسبح كل شيء في النور وبدت الحجرة أشد مرحا، فجلست على حافة النافذة وأطلت على الحديقة ورحت أفكر، واستولت على روحي إحساسات رقيقة متناهية في القوة وأنا أملأ عيني بمنظر الأرض الندية ببقايا الثلج الذائب وقد شقتها هنا وهناك رماح خضراء من العشب، وأشعة الشمس تنعكس في لألاء باهر على قطرات الماء والجداول الصغيرة، وأحواض الزنبق والآس تميس بقدودها الهيفاء ورءوسها تحت أنسام الربيع، وكأن ضوء الشمس موسيقى مرحة النغمات تحدثني حديثا يعيه وجداني ويفقهه، تحدثني عن شيء جديد جميل رائع، لا أستطيع أن أقول ما هو لأن الألفاظ لا يمكن أن تعبر عنه.

كان كل ما أراه يحدثني عن الجمال والسعادة والفضيلة وإنها جميعا أمور ممكنة لا يوجد واحد منها بغير صاحبيه، فالجمال والسعادة والفضيلة شيء واحد.

وتساءلت متعجباً كيف غاب ذلك عني من قبل؟ وكم كنت شريراً شقياً حين جهلت تلك الحقيقة! وما أحراني أن أكون سعيداً في مستقبل

أيامي وأنا أسير في ذلك الطريق السلطاني، طريق الجمال والسعادة والفضيلة!

– يجب أن أغدو بأسرع ما يمكن إنساناً آخر! يجب أن أشرع من هذه اللحظة في حياة جديدة تختلف تماماً عن حياتي حتى الآن!

ولكن هذا العزم العاجل لم يدفعني إلى مزايلة مقعدي فوق حافة النافذة ساعة طويلة غارقاً في أحلامي مستسلماً للبطالة، ثم تنبهت إلى موقفي الشائن بعد عزمي الأكيد فكأنما أشرقت على روح جديدة.

هل حدث لك في حياتك أن تنام إلى الغروب في أيام العمل الدافئة ثم تستيقظ فجأة لتجد النهار قد ولى وأنت غارق في سباتك، فتشعر بالخجل من نفسك لأنك نمت غافلا عن ذلك الجو البديع مبدداً الفرص الثمينة، وتهب على عجل لتعوض ما فاتك من اهتبال سانحات الحياة؟

إن كنت جربت هذا يوما من الأيام، فأنت مدرك طرفا من الشعور القوي الذي استولى على نفسي في ذلك النهار.

حدثت نفسي قائلا:

– اليوم سأذهب إلى الاعتراف وأتطهر من جميع آثامي، ولن أقارف مأثماً بعد اليوم.

واسترجعت جميع الآثام التي كانت تقض وجداني، ثم قلت:

– سأذهب إلى الكنيسة بغير تخلف كل يوم أحد، وبعد العودة سأطالع في الإنجيل ساعة كاملة، وسأعطي العشر من الخمسة وعشرين روبلا التي سأتقاضاها مرتباً شهرياً عند دخولي الجامعة للفقراء، سأعطيها خلسة حتى لا يدري بها أحد، سأعطيها لا للمتسولين، بل سأنقب عن الفقراء واليتامى والأرامل الذين يدارون فقرهم بالتجمل فلا يدري بأمرهم أحد! وستكون لي حجرة خاصة أنظفها بنفسي وأجعلها آية في الترتيب حتى لا أتعب الخادم في شيء من أمري، فالخادم إنسان مثلي، ثم سأذهب إلى الجامعة سيراً على قدمي، فإن أعطوني مركبة صغيرة أو زحافة سأبيعها وأفرق ثمنها بين الفقراء والمعوزين، ومحاضراتي سأعدها أعداداً كاملاً قبل أن أذهب لتلقيها حتى أكون في مقدمة زملائي في الفصل الدراسي الأول، سأحرر البحوث وأبذل الجهد عسى أن ينقلوني في الفصل الدراسي الثاني إلى الصف التالي حتى أتخرج في سن الثامنة عشرة وقد ظفرت بوسامين ذهبيين، وأنصرف للتحضير لدرجة الأستاذية (الماجستير) وبعد الحصول عليها أحضر درجة الدكتوراه وأغدو في طليعة علماء روسيا، بل عساني أمسى أعلم رجل في أوربا قاطبة!

وسألت نفسي على الأثر:

– وماذا بعد ذلك كله؟

ثم تنبهت إلى أن هذه كلها أحلام، أحلام كبرياء وزهو، فهي آثام يجب أن اعترف بها للقسيس هذا المساس، ثم عدت إلى بداية خواطري وسوانحي:

– أن الاستعداد سلفا للمحاضرات يحتاج إلى جو خاص، سأسير إلى التلال واختار بقعة خالية تحت شجرة وأقرأ فيها دروسي، وقد احمل معي في بعض الأحيان شيئا آكله ثم أستريح وأطالع كتاباً جيداً، أو أرسم المنظر الذي أمامي، أو اعزف على آلة موسيقية (وبهذه المناسبة لابد لي أن أتعلم العزف على المزمار!) وهي أيضاً يجب أن يخطر لها السير إلى التلال، وفي يوم من الأيام ستأتي إلي وتسألني من أكون، وسأنظر إليها في حزن وأقول لها إني ابن قسيس، وإنني لا أشعر بالسعادة إلا عندما أكون بمفردي، وحيداً أتم الوحدة، فتعطيني عندئذ يدها وتقول شيئا ثم تجلس بجواري، وسنذهب معا كل يوم بعد ذلك إلى تلك البقعة ونغدو صديقين فأقبلها، كلا!.. ولن أذهب إلى باب حجرة نوم الخادمات، بل ولن أحاول المرور به، وبعد ثلاث سنوات سأكون بلغت سن الرشد فأزوج بلا تردد، وسأمارس التمرينات البدنية كل يوم حتى أكون في منتهى القوة وأنا في العشرين، وسأتدرج في حمل الأثقال حتى أصل إلى حمل أربعمائة رطل فأكون أقوى من أي رجل فيمن عرفتهم، حتى إذا تجاسر إنسان على اهانتي أمسكت به من تلابيبه ورفعته فوق رأسي بيد واحدة فيظل مرفوعا في الهواء إلى أن يعرف مبلغ قوتي ثم أطلقه، ولكنه هذا أيضاً لن يكون صواباً! ولكن لا بأس ما دمت سوف لا أؤذيه!

ولا تلومني على أحلام شبابي وما تتسم به من طفولة، فأنا واثق إني مهما طعنت في السن سأجد نفسي أحلم أحلام الأطفال على ذلك النحو، سأحلم بفتاة تحبني وأنا شيخ أدرد الفم وأنجب منها ابنا "أبله" يرتقي فجأة منصب الوزارة، ولا يخلو الأمر أن تهبط على ثروة تقدر بالملايين من حيث لا احتسب، ولا أظن إنساناً مهما تقدم في السن حرمته الطبيعة من هذه الأحلام المغرية، ولكن أحلام كل مرحلة في العمر لها طابعها الخاص بها، وكان حب هذه المجهولة الخيالية هو الطابع المميز لأحلام مطلع الشباب عندي، وكانت أوصافها خليطاً ممن مال إليهن قلبي من القريبات وبنات المعارف والجيران والخادمات ولاسيما ماشا زوجة وسيلي الخادم حين تقف تغسل الثياب وقد مالت على "الطست" وابتلت ثيابها فالتصقت بجسدها.

والخاصة المميزة لهذا الحب أنه كان حبا للحب، فأنا أيضاً أريد بل اشتهي أن يعرفني كل إنسان ويحبني وأن يكون اسمي على كل لسان مقرونا بالتقدير والإعجاب والامتنان، وكان اعتقادي راسخاً إنني سأكون قريبا أعظم رجل في العالم بوسيلة أجهلها ولكنها لاشك حاصلة، ولهذا عشت في تلك الفترة وأنا أتوقع مفاجأة مجهولة رائعة سعيدة، أستطيع بعدها أن أحقق جميع أحلامي.

إن الندم على الماضي التافه وما فيه من خمود وآثام والرغبة الصادقة في الجمال والكمال، هما الإحساس السائد على تلك الحقبة من عمري، ومن هذا الإحساس نبتت مبادئي ونظرتي إلى نفسي وإلى

الناس وإلى الدنيا التي خلقها الله، وهذا الإحساس تطامن للأسف الشديد تحت وطأة الزمن وما يحمله في تضاعيفه من زيف وشر ورذيلة، ولكنه كان يرفع رأسه بالاحتجاج مشيراً إلى هدفه النبيل مبشراً بمستقبل من طلب الكمال والسعادة.

ترى هل سيكتب لهذا الإحساس الناطق في نفسي أن يخمد يوماً ما خمود الأبد؟

محيط الأسرة

قلما رأينا أبي في البيت ذلك الربيع، ولكنه كلما جاء كان مرحا غاية المرح، يعزف قطعه المفضلة على البيانو وينظر إلينا نظرات معربدة ويعابثنا بالنكات، فيقول، مثلا، لي بوجه غاية الجد إنني عينت سكرتيراً مساعداً لسفيرنا في فينا، أو يخيف كاتنكا بالعناكب التي كانت تفزع منها كثيراً.

ولكنه كان ودودا للغاية مع صديقينا دبكوفونخليودوف، ويخبرهما ويخبرنا أيضاً بمشروعاته للسنة التالية، ومع أن هذه المشروعات والخطط كانت تتغير كل يوم تقريباً وكثيراً ما يناقض بعضها البعض الآخر، إلا أنها كانت خطوة لطيفة جذابة نصغي إليها بشغف، حتى أن أختي ليوبا الصغيرة كانت تشخص بعينيها إلى فمه خشية أن تفوتها كلمة واحدة، وتارة كان مشروعه يتلخص في تركنا موسكو للدراسة في الجامعة، ويذهب هو مع ليوبا إلى ايطاليا لتمضية عامين، وبعد ذلك يشتري ضيعة

في شبه جزيرة القرم تطل على الساحل الجنوبي كي يذهب إلى هناك لتمضية الصيف، وفي مرة أخرى تكون خطته النقلة إلى بطرسبرج مع الأسرة كلها، وهكذا.

ولكن الذي لفت نظري إلى جانب مرح والدي هو تغير آخر طرأ عليه فأدهشني دهشة عظيمة، فقد ابتاع لنفسه ثيابا على آخر طراز: حلة زيتونية اللون، ومعطفاً طويلاً وسراويل رشيقة، فكان يبدو فيها وجيها للغاية، وكثيراً ما فاحت منه رائحة العطر الجميل عندما يزمع الخروج إلى مكان ما، ولاسيما لزيارة سيدة معينة.

وسمعت من نيكولاي أن الحظ كان حليفه في الميسر في الشتاء الماضي بصورة خارقة للعادة فربح مبلغاً جسيماً جداً أودعه في المصرف وقرر إلا يقرب الميسر في هذا الربيع، ولعل هذا هو السبب في تلهفه على الرحيل إلى الريف كي يباعد بين نفسه وبين المائدة الخضراء فإذا به يقرر التعجل بالسفر مع أخواتي الفتيات بعد عيد الفصح مباشرة إلى بتروفسكوى غير منتظر دخولي الجامعة ونتيجة امتحان قبولي، فبقيت أنا وفولوديا على أن نلحق بالأسرة فيما بعد.

وكان فولوديا لا يفارق دبكوف طول الشتاء وأول الخريف، أما ديمتري نخليودوف ففترت علاقته به كثيراً، وكانت صداقته بدبكوف تحتاج إلى تسلية ولهو، وكانت هذه التسلية فيما أدركت من أطراف الأحاديث التي سمعتها هي شرب الشمبانيا بلا توقف، والمرور في زحافة

صغيرة تحت نوافذ الشابات اللواتي وقعا في غرامهن، والرقص لا في مراقص الأطفال كما كان الحال حتى الآن بل في مراقص حقيقية يؤمها الكبار.

وهذا الظرف الأخير باعد قليلا بيني وبين فولوديا رغم مودتنا المتبادلة، فكلانا كان يشعر أن هناك بونا شاسعاً بين غلام خاضع للرقابة من مؤدبيه وبين رجل يرتاد المراقص الكبرى، وهذا الإحساس بالفرق الضخم كان يمنع كلا منا من مكاشفة الآخر بخواطره الحميمة.

وكانت كاتنكا قد شبت عن الطوق وجعلت تقرأ الكثير جداً من الروايات، ولم يطب لي التفكير في أنها لا تلبث أن تتزوج، ومع أن فولوديا شب عن الطوق أيضاً ألا أن التفاهم بينهما كان مفقوداً، ويخيل إلي أنه كانت بينهما نفرة.

والغالب أن كل هم كاتنكا حين تكون بالبيت كان منصرفا إلى قراءة الروايات، إذ كانت تشعر بالملل في معظم الأحيان، ولكن حين يحضر الرجال لزيارتنا كانت تتدفق حيوية ونشاطا وخفة روح، وترشقهم بنظراتنا التي لم أكن أدرك عندئذ ماذا تعني بها، ولكن فيما بعد عرفت منها أن المغازلة بالعيون هي المغازلة الوحيدة المسموح بها للفتاة، فعرفت معنى تلك الحركات الغريبة من عينيها التي كانت لا تدهش الآخرين إطلاقا.

والصغيرة ليوبا بدأت كذلك ترتدي الثياب الطويلة، فاختفت عن الأنظار عيوب تكوين ساقيها، بيد أنها لم تزل تبكي وتصر كما كانت

صغيرة، وانصرف اهتمامها الأعظم إلى الموسيقى لأنها كانت تحلم في تلك الفترة بالزواج من مغن أو موسيقي.

وأما مؤدبنا سان جيروم فكان يعلم أنه سوف لا يبقى في بيتنا بعد التحاقي بالجامعة فاتفق على الالتحاق بخدمة كونت، وصار ينظر إلى بيتنا في زراية واستهانة، وكثيراً ما كان يخرج وتعلم تدخين السجائر، وكان ذلك يعتبر عندئذ قمة التبهرج، ولا يكف عن الصغير بألحان مرحة.

وعندما كنت أنزل للعشاء أجد أخواتي وحدهن مع سان جيرو في قاعة المائدة، أما أبي فيكون قد خرج وفولوديا يستعد للامتحان مع رفيقيه في حجرته ولذا يقدم إليه العشاء هناك، وتجلس أختي الكبرى ميمي على رأس المائدة وكنا لا نحترمها فيفقد العشاء الكثير من بهجته وهيبته، إنه لم يعد كما كان في حياة أمي وجدتي حفلاً يومياً يربط بأهميته بين أفراد الأسرة في ساعة معينة مهما توزعتهم المشاغل في ساعات النهار الأخرى.

ففيما مضي، في بتروفسكوى كان كل منا ينزل للعشاء بعد أن يستحم ويرتدي الثياب المناسبة، وكانت المائدة مسرحا للأحاديث اللطيفة، ويسودها النظام والترتيب والاحتفال، ما كان أبهجها من ساعة!

وفي موسكو كانت جدتنا تقوم مقام أمنا بعد أن ماتت الأم، وكان الاحتفال بتلك الوجبة لا يقل عما تعودنا عليه في الضيعة، أما الآن فلم أعد أشعر بهذا السرور الجياش في ساعة الطعام، والأحاديث التي تنعقد

بين ميمي وسان جيروم والفتيات تدور حول أمور تافهة مثل الثياب والأحذية، ولكني كنت أكتفي بالإصغاء في أدب بالغ، والموافقة على رأي سان جيروم حين يأخذ رأيي أو يستشهد بي، وكان يحنقني أن لا أجد في هذه الضجة من يلتفت إلى محافظتي الشديدة على الأدب والرقة.

وبعد العشاء كانت ليوبا تريني ورقة سجلت فيها جميع الخطايا التي اقترفتها في ذلك اليوم، فكنت أثني عليها لذلك العمل وأنبهها إلى أن الأفضل من تسجيل الآثام على الورق تسجيلها في السريرة، حتى لا تعود إلى اقترافها.

وبعد ذلك أصعد إلى حجرتي لأراجع نفسي أفعالي استعداداً للاعتراف وأسجل على الورق مشروعاتي المستقبلية وأهدافي والمبادئ والقواعد التي سألتزمها سائر أيام حياتي والتي سوف لا أحيد عنها.

قواعد

وبالفعل تناولت ورقة وحاولت أولاً أن أكتب قائمة بواجباتي كما افترضتها خلال السنة المقبلة، وكان لابد من تسطير جداول في هذه الورقة، فلم أجد المسطرة فاستخدمت قاموس اللغة اللاتينية في التسطير، وبعد أن رفعت القاموس أتضح لي أن الحبر سال على الورقة فلطخها، وكان القاموس أقصر من الورقة فخرج الخط متعرجاً، فتناولت ورقة أخرى واستعطت بعد جعد أن أخط فيها السطر المطلوب بالقلم

والقاموس. ثم قسمت واجباتي إلى ثلاث فئات: واجباتي نحو نفسي، ونحو جيراني، ونحو الله.

وشرعت أكتب واجباتي نحو نفسي فإذا بي اكتشف أنها من الكثرة والتعدد، بحيث اتضح لي أنني يجب أن أكتب قبل هذه الواجبات قواعد حياتي، وتناولت ست ورقات حكتها بالخيط حتى صارت كراسة وكتبت في رأسها "قواعد حياتي" فخرجت الحروف متعرجة غير متناسقة حتى أني فكرت في كتابتها من جديد، وشعرت بحسرة بالغة وأنا أتساءل لماذا يخرج كل جميل نظيف في سريرتي مشوهاً قبيحاً منفراً عند التنفيذ؟ لماذا يشوه التطبيق العملي جميع أفكاري الجميلة الرائعة؟

وسمعت نيكولاي عند الباب يقول لي:

– لقد حضر القسيس، فتفضل بالنزول لتسمع توجيهاته.

فأخفيت كتابي في مكتبي ونظرت في المرآة ومشطت شعري إلى الخلف بصورة خيل إلي أنها تضفي على سيماء التفكير، وتوجهت إلى حجرة الجلوس حيث أعدت على منضدة مغطاة بمفرش الصور المقدسة والشموع المشتعلة، ودخل أبي من باب آخر في اللحظة التي دخلت فيها أنا.

ومنح القسيس الأشيب الشعر الجاد الملامح المتغطن الوجه والدي بركاته، فقبل أبي يده العريضة الجافة القصيرة، وحذوت أنا حذوه، وسأل أبي عن فولوديا فقالت كاتنكا:

– إنه يدرس مع الأمير نخليودوف.

ثم رمقت أختي الصغيرة ليوبا فاحمر وجهها فجأة لسبب ما، ولكنها زعمت أن شيئا آلمها ثم غادرت الحجرة، وتمهلت في الحجرة الخارجية حيث تبعتها فرأيتها تكتب شيئا في ورقتها، فسألتها:

– هل ارتكبت خطيئة أخرى مميتة؟

فأجابتني وقد احمر وجهها:

– كلا، لم أفعل شيئا من هذا.

وفي هذه اللحظة سمعنا صوت الأمير في الدهليز يستأذن في الانصراف من فولوديا، ودخلت كاتنكا فقالت مخاطبة ليوبا الصغيرة:

– أن كل شيء يعتبر عثرة لك وغواية.

ولم أفهم ماذا حدث لأختي الصغيرة، فقد رأيتها محرجة حتى أن الدموع طفرت إلى عينيها، ثم انقلب الحرج إلى سخط وغضب على نفسها وعلى كاتنكا التي كانت تغيظها غيظاً واضحاً ثم صاحت:

– كيف تثيرينني قبل تناول الأسرار المقدسة بهذه الصورة؟ إنك تعلمين أن هذه المسألة لا تصلح موضوعا للمزاح إطلاقا.

فسألتني كاتنكا:

– أتعلم ماذا كتبت يا نقولا؟ لقد كتبت...

فقاطعتها ليوباثارة وهي تبتعد عنها:

– لم أكن أنتظر منك أن تكوني حقوداً إلى هذا الحد، إنها يا نقولا تدفعني إلى الخطيئة عمداً في مثل هذه اللحظة، لماذا يا كاتنكا؟ إنني لا أغيظك ولا أنال من عواطفك وآلامك، أليس كذلك؟

وعدت وفي رأسي هذه الخواطر وما إليها إلى حجرة الجلوس فإذا شمل الجميع قد التأم هناك، ثم وقف الكاهن وتأهب للصلاة قبل تلقي الاعتراف، وما أن رن في الصمت السائد صوت القسيس الجاد داعيا إلى التوبة والاعتراف بلا خجل بالخطايا حتى تتطهر نفوسنا أمام الرب، مذكراً إيانا بأن إخفاء الخطايا وكتمانها يضاعف من وزرنا، إذا بشعور التقوى يسيطر على نفسي كما كنت من قبل وأخذتني الخشية والخشوع لتناول الأسرار المقدسة.

وكان أبي أول من تقدم للاعتراف فاختلى بالقسيس في حجرة جدتي مدة طويلة، ولبثنا نحن كلنا صامتين في حجرة الجلوس ثم تناقشنا في همس أينا يدخل بعده، ثم سمعنا من وراء الباب صوت القسيس يرتفع وهو يتلو الصلاة، وعلى الأثر ترامى إلينا وقع أقدام أبينا وانفتح الباب ثم برز الوالد وهو يسعل، رافعا أحد كتفيه فوق مستوى الآخر، ولم يرفع عينيه إلى أحد منا، ثم قرص خد ليوبا الصغيرة وقال بمرح:

– ادخلي الآن يا ليوبا، وقولي كل شيء، فأنت الخاطئة الكبرى كما تعلمين!

فاحمر وجه ليوبا ثم أصفر، وأخرجت قائمة خطاياها من جيب ثوبها ثم أعادت وغاص رأسها بين كتفيها كأنها تتوقع لطمة تهبط عليها من أعلى، ثم دلفت من الباب.

ولم يطل مكثها في الداخل، وعندما خرجت كان كتفاها يهتزان بالنحيب، ودخلت بعدها كاتنكا التي خرجت علينا مشرقة بالابتسام، وحل دوري، فدخلت القاعة نصف المعتمة وأنا أشعر بذعر غبي ورغبة ملحة في ازدياد هذا الذعر، فلما دخلت حول الكاهن وجهه نحوي.

ولم ألبث في حجرة جدتي أكثر من خمس دقائق، ولكني عندما خرجت كنت أشعر بالسعادة، وعلى حسب اعتقادي وقتئذ خرجت شخصاً نقياً ولد من جديد لأن روحي تغيرت تغيراً كلياً.

ولازمني هذا الشعور النادر في صفائه ونشوته إلى أن أويت إلى فراشي، وكنت على وشك الاستغراق في النوم وأنا أعيد في مخيلتي جميع الآثام التي تطهرت منها فصرت أبيض كالثلج، وإذا بي أتذكر فجأة خطيئة معيبة أغفلت ذكرها في الاعتراف!

وقفزت إلى ذاكرتي كلمات الصلاة التي تلاها القسيس قبل الاعتراف وجعلت ترن في أذني بلا انقطاع فتلاشت غبطتي كلها.

– إن كتمتم خطاياكم فسيضاعف ذلك من وزرها أمام الرب!

ورأيت نفسي غارقا في مزيد من الخطايا بحيث لا تكفي جميع العقوبات للتكفير عن وزري، وظللت أتقلب على الفراش منتظراً عقاب الرب في صورة موت مفاجئ وقد تصببت بالعرق البارد.

وأخذ رعبي من حالتي يزداد بمضي الوقت وأنا لا أدري ماذا سيحدث لي ولا ما هو المخرج من ورطتي المهلكة.

وفجأة خطرت لي فكرة موفقة للغاية، أن أذهب على قدمي أو في عربة إلى ذلك الراهب الذي تلقى اعترافي في الدير الذي يقيم به متى بزغت أول أنوار النهار وهناك اعتراف له اعترافاً جديداً كاملاً غير منقوص.

وبذلك وحده عاد الهدوء إلى نفسي.

الرحلة إلى الدير

وصحوت في هذه الليلة عدة مرات لخوفي أن أتأخر في الاستيقاظ، وفي الساعة السادسة كنت على تمام الأهبة للخروج، والنهار لم يبزغ تماما بعد، ومن غير أن أغسل وجهي أو أتلو صلاتي خرجت إلى الشارع وحدي لأول مرة في حياتي.

وواجهني ضوء الفجر الأحمر الباهت وهواؤه البارد من وراء البيت المقابل لنا بسقوفه الخضراء، فأوشكت أناملي وملامح وجهي أن تتجمد من شدة البرودة.

ولم أجد حوذيا في الشارع، مع إني كنت عولت على ركوب عربة أجرة في الذهاب والإياب حرصا على السرعة، ولم يقابلني في الشارع إلا نفر من عمال البناء ذاهبين إلى أشغالهم، وبعد أن مشيت على قدمي نحو ألف خطوة بدأ عدد المارة يزداد رجالا ونساء يحملون السلال أو الجرار ذاهبين إلى السوق أو لإحضار الماء، وسمعت نداء باعة السميط والفطائر الساخنة، وأخيرا رأيت حوذياً عجوزاً نائماً فوق زحافته الزرقاء البالية.

واخاله كان لم يزل تحت تأثير النعاس حين طلب مني عشرين كوبكا كي يقلني إلى الدير ويعود بي منه، وما أن هممت بالركوب حتى تنبهت حواسه وضرب حصانه بطرف سوطه فأوشك أن ينطلق بالزحافة وهو يغمغم:

– حصاني جائع فلا أستطيع أن أوصلك يا سيدي.

ووجدت عناء في إقناعه بقبول أربعين كوبكا، وعندئذ رمقني بنظرة متفحصا، ثم قال:

– ليكن، اركب يا سيدي.

واعترف إنني كنت خائفاً أن يحملني إلى مكان مقفر ويسرقني، فظلت أنظاري معلقة به وبعنقه النحيل المتغضن فوق ظهره المحدودب وهو يقود الزحافة في الشوارع المتعرجة.

وعندما وصلنا إلى الدير كانت الشمس قد ظهرت في السماء وانعكست أشعتها الذهبية على قباب الكنائس وأن بقيت في الجو بقية من الضباب، وعندما دخل بنا الحصان داخل أسوار الدير سألت أول شخص رأيته عن القسيس، فأجابني الراهب الذي سألته وهو يشير إلى بيت صغير له مدخل وعريشة.

– ها هي ذي صومعته.

– إني شاكر لك جداً.

ثم بدأت أتساءل ماذا يقول الرهبان عني فإني رأيتهم خارجين من الكنيسة وهم ينظرون جميعا نحوي في استغراب، وكنت وسطا بين الطفولة والشباب ووجهي غير مغسول وشعري غير مرجل وثيابي غير منسقة والطين يلطخ حذائي، فلابد أنهم كانوا يحاولون تحديد صفتي وطبقتي بين الناس، فإن نظراتهم نحوي كانت حادة، ولكني لم أكترث وسرت في الاتجاه الذي دلني عليه الراهب الشاب.

وقابلني في الممر الضيق المؤدي إلى الصومعة رجل مسن في ثوب أسود ذو لحية بيضاء كثة وسألني ماذا أريد، فراودتني نفسي لحظة أن

أقول له:

– لا شيء!

ثم أجري عائداً إلى الزحافة فأستقلها إلى البيت، لولا أن سحنة الرجل كانت توحي بالثقة والطمأنينة رغم قطوب ما بين حاجبيه، فأخبرته إني أريد أن أقابل الكاهن، وذكرت له اسمه، فقال لي وقد أدرك فيما يلوح القصد من زيارتي هذه:

– تعال معي أيها السيد الصغير وسأريك الطريق، فالأب يحضر صلاة الصباح الآن وسيأتي بعد قليل.

ثم فتح الباب وأدخلني إلى ردهة نظيفة يغطي أرضها بساط من الكتان وتؤدي إلى الصومعة، ورمقني بنظرة حانية مطمئنة وقال لي قبل أن يخرج:

– انتظره هنا من فضلك.

وكانت الحجرة التي وجدت نفسي فيها صغيرة جداً ولكنها منسقة تنسيقا غاية في الأناقة، وكان كل الأثاث الموجود هناك: منضدة صغيرة عليها غطاء من المشمع وفوقها زهريتان، وعلى حافة النافذة أنيتان بهما زهور الجيرانيوم، أما الحائط فكانت تزينه أيقونة يهتز أمامها قنديل مشتعل، وكان هناك كرسي كبير واحد مريح ومقعدان عاديان، وفي الركن ساعة زينت ميناؤها بأزهار ملونة، وهناك ساتر من القماش من ورائه فيما

أظن فراش القسيس.

وكانت النافذة تطل على حائط أبيض يبعد مسافة قليلة عنها، وفي المسافة بينهما شجرة زنبق صغيرة، وكان السكون تاما فلا تخدش الأذن همسة، ولذا كانت دقات الساعة تبدو عالية ضخمة.

وفي هذا السكون نسيت جميع خواطري أفكاري، ووجدتني أنعم بهدوء نفسي غريب واسترسل في أحلام لطيفة، وكانت الألوان الهادئة من حولي توحي إلي بحديث هامس عن حياة جديدة لم أعرفها من قبل، حياة الوحدة والصلاة والسكون وسكينة النفس والسعادة، قلت لنفسي:

– أن الشهور تمر والأعوام تمر وهو بمفرده هنا، هادئ على الدوام وسريرته في جميع الأوقات نقية الصفحة طاهرة تحت أنظار الرب، تصعد إليه سبحانه صلواته الخالصة.

وظللت زهاء نصف ساعة جالسا في ذلك المقعد لا أتحرك، بل واجتهد ألا أتنفس بصوت مرتفع حتى لا أكدر صفاء ذلك الصمت الذي كان يصب في سريرتي حديثه الساحر المتصل، والساعة تتوالى دقاتها المنتظمة بغير وناء.

ونبهني وقع أقدام القسيس من سبحاتي، وبادرني قائلا وهو يسوى شعره الأشيب بيده:

– مرحبا بك، ماذا أستطيع لك؟

فطلبت منه أن يمنحني بركته وقبلت يده القصيرة الصفراء باغتباط، ولما شرحت له ملتمسي لم يجب بشيء، بل وقف بجوار الأيقونة وشرع يصغي لاعترافي، حتى إذا تغلبت على حيائي وأخبرته بكل ما في سريرتي وضع يده فوق رأسي وباركني مستنزلا نعمة السلام على نفسي سائلا لي الثبات في إيماني، فشعرت بسعادة كاملة حتى أن الدموع– دموع الغبطة– داعبت حلقي، وقبلت أهداب ثوبه ورفعت رأسي إلى وجه الراهب العجوز فوجدته هادئ الأسارير.

وخشيت أن مكثت أكثر من ذلك أن تفتر نشوتي العاطفية فاستأذنت من القسيس على عجل ثم خرجت لا ألوى على شيء فجلست في الزحافة التي انطلقت بس صوب البيت، بيد أن اهتزازاتها وتعاقب المناظر المختلفة من حولي وأصوات السابلة والباعة بددت ذلك الشعور الجميل، وإذا بي أعود إلى التفكير المبني على الخيلاء، فأتصور القسيس مستغرقا الآن في الإعجاب بصفاء نفسي معتقداً إنه لم ير ولن يرى فتى بهذا السمو من قبل ومن بعد!

وقر في نفسي هذا الاعتقاد فاستولى على السرور وفاض من جوانحي بحيث كان يجب أن أفضي به إلى أحد، ولما لم يكن تحت يدي الساعة إلا الحوذي العجوز قلت له:

– هل تراني مكثت طويلا هناك؟

– ليس كثيراً، ولكن كان يجب أن أطعم الحصان منذ مدة.

- لقد خيل إلي إني لم أمكث سوى دقيقة، أتدري لماذا ذهبت إلى الدير في هذه الساعة المبكرة؟

- ليس هذا من شأني، فأنا أحمل الناس إلى حيث يأمرونني.

- ولكن ألا تستطيع التخمين؟

- ربما كان أحدهم مات فذهبت مبكراً لتشتري له لحدا يقبر فيه.

- كلا يا صاح! أتدري لماذا ذهبت؟

- وكيف أدري؟

وبدا لي صوته رقيقا فقررت أن أقص عليه سبب رحلتي، بل والمشاعر التي أحسست بها، وإني لأشعر بالخجل الآن لجميع التفاصيل التي رويتها له، وبعد أن فرغت ظل صامتا مدة طويلة فخيل إلى إنه يفكر في- كما فكر في القسيس- بمزيد من الإعجاب حتى إنني في نظره أسمى شاب في العلم. بيد إنه التفت نحوي فجأة، وقال لي:

- أنتم دائما هكذا أيها السادة.

- ماذا تقول؟

- هذا دأب الأسياد من طرازك دائماً.

فقلت في نفسي أنه لم يستطع أن يفهمني، وقررت ألا أحدثه بكلمة واحدة إلى أن بلغت الدار.

ومع أن شعور الاغتباط والخشوع لم يعمر في نفسي طويلا، إلا أن ارتياحي لحصول تلك التجربة لي ظل عالقا بوجداني رغم ضجة الناس من حولي، حتى إذا وقفت الزحافة أمام البيت تلاشت جميع إحساساتي لأمر هام، هو إنني لم أكن أملك الأربعين كوبكا أجر الحوذي.

ورفض الساقي أن يقرضني لكثرة ما علي من الديون له، ولمح الحوذي ارتباكي فخمن السبب ونزل من الزحافة وتلاشت رقة سحنته وصوته اللتين تخيلتهما، وأخذ يصيح بصوت مرتفع عدائي منددا بالمحتالين اللذين لا يملكون أجر ركوبهم!

وكان جميع من في البيت ما زالوا نياما ما عدا الخدم، وأخيراً رضخ الساقي أمام وعودي وإيماني التي لا يثق بها وأعطاني المبلغ إكراماً لخدماتي السابقة لأني أنا الذي توسطت له عند أبي كي يزوجه وصيفتنا ماشا.

وصعدت إلى حجرتي فبدلت ثيابي بعد أن استحممت كي أذهب إلى الكنيسة لتناول الأسرار المقدسة، وعندما حلت لحظة التناول كان ذهني في حالة اضطراب وارتياب في قيمة جميع دوافعي السامية.

الفصل الثاني

الامتحان

في يوم الجمعة التالي لعيد الفصح سافر الجميع إلى الريف فلم يبق في المنزل سواي وفولوديا وسان جيروم، وكانت الحالة النفسية التي استولت على في يوم الاعتراف ويوم توجهي إلى الدير في بكرة الصباح قد اختفت تماما وتركت وراءها ذكرى لطيفة سرعان ما طغت عليها إحساسات حياتي الطليقة بعد سفر الكبار والرقباء، واختفى الكتاب الذي أعددته بعنوان قواعد الحياة تحت أكداس الكراسات المهملة والمسودات.

ولم يكن ذلك لبطلان اعتقادي في جدوى تلك القواعد الدائمة، بل لأني نسيت فيما يلوح أن هذه القواعد ينبغي أن تطبق على الفور، فكنت أؤجل باستمرار بداية وضعها موضع التنفيذ إلى أجل غير مسمى...

وكان إحساسي بالحرية، والشعور الذي أثاره الربيع بتوقع حدوث شيء، قد أثارا وجداني بحيث أصبحت عاجزاً فعلاً عن السيطرة على نفسي، فساء استعدادي للامتحان سوءاً شديداً، وكثيراً ما كنت أجلس في حجرة الدرس في الصباح مقدرا ضرورة الانصراف للعمل لأن يوم غد

سأؤدي فيه امتحانا في مادة معينة، وهناك بابان في هذه المادة لم أطالعهما إطلاقا، وإذا برائحة الربيع تهب علي من النافذة، فتتهاوى يداي من تلقاء نفسيهما، وتتحرك قدماي من تلقاء نفسيهما، وأظل أتمشى جيئة وذهابا وقد خف دماغي وشاع السرور في جوانحي وأخذت الخواطر المشرقة تفد على ذهني بسرعة خارقة بحيث لا أدرك منها غير ما تتميز من صفة الإشراق، وتمر علي هذه الحالة الساعة والساعتان من غير أن أحس بمرورهما.

وقد أكون جالسا في المساء وحدي إلى ضوء شمعة في حجرتي، وأتململ لأستريح في جلستي فأتنبه إلى الظلام السائد والسكون المطبق، ويستغرقني هذا الإحساس مدة طويلة فلا أستطيع العودة إلى كتابي المفتوح.

والحق إنه لولا الأساتذة الذين استمروا في الحضور لتعليمي، ولولا سان جيروم الذي كان يستحث في الشعور بالكرامة بين الحين والحين، ولولا رغبتي في إظهار قيمتي أمام ناظري صديقي نخليودوف بالتفوق في الامتحان الذي كان يعتبره ذا أهمية بالغة، لكان الربيع والحرية كافيين كي أنسى كل ما عرفته من قبل، ولما استطعت تأدية الامتحان بأية صورة من الصور.

وفي يوم السادس عشر من أبريل دخلت قاعة الجامعة الكبرى لأول مرة تحت رعاية سان جيروم، وكانت جميع ملابسي الخارجية

والداخلية جديدة ومن أحسن الأنواع، ولما خلعت معطفي الجديد بدأت أخجل من أناقتي البراقة لولا أن الزحام في القاعة وأراني عن الأنظار.

ورأيت الأساتذة الأجلاء في أقصى القاعة يتجولون بين مقاعد الطلبة، وانتقيت مقعداً في الطرف الآخر للقاعة جلس فيه طالب قبيح الشكل جداً مشعث الثياب أشيب الشعر فجلست بجواره حتى يبدو منظري متميزاً بقدر الإمكان، وأخذت أرقب المتقدمين للامتحان وأكون لنفسي فكرة عنهم، وما كان أكثر الوجوه وأشد تباينها هناك، ولكنها على اختلافها يمكن تقسيمها إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى تضم من على شاكلتي ممن حضروا لتأدية الامتحان مع مؤدبيهم الخصوصيين أو آبائهم، وجميعهم في ثياب معتنى بها، لا يقلبون في الكتب والكراسات باضطراب، بل ينظرون إلى مقاعد الأساتذة في حياء ظاهر.

والفئة الثانية من المتقدمين للامتحان، شبان أكبر سنا من طلاب المدارس العامة، وكلهم حليقو الذقون، يتحدثون فيما بينهم بصوت مرتفع ويتبادلون الأسئلة والاختبارات ويرجعون إلى الكتب والكراسات أو يأكلون الشطائر التي أحضروها معهم.

والفئة الثالثة والأخيرة قليلة العدد جداً، وهي فئة المتقدمين في السن، ولا تدل ثيابهم على يسر الحال، وسحنتهم لا تدل على التفاؤل، بل تراهم يجلسون منعزلين مقطبين، وكان من هذه الفئة ذلك الشخص

الذي جلست بجواره، فقد انكب على كتاب يطالع فيه وهو يتخلل شعره الأشيب بأصابعه، ولم يرمقني إلا بنظرة واحدة لم تكن تنبئ عن مودة، وجعل مرفقه بيني وبينه حتى لا أقترب منه، وعوضني عن هذا الأعراض إقبال طلاب الفئة الثانية إقبالا أشبه بالتهجم، فقد دفع أحدهم في يدي بكتاب صائحا بغير تكليف:

– أعط هذا الكتاب لذلك الفتى الجالس هناك.

وجلس آخر فوق قمطري واتكأ على كتفي كأنه المسند، فاستأت لأني كنت اعتبر نفسي أرقى من طلبة المدارس العامة هؤلاء فلا تسوغ منهم هذه الجرأة علي.

وأخيرا بدأت تلاوة الأسماء، فكان طلاب المدارس العامة يبرزون في إجابة النداء بجرأة ويجيبون عن الأسئلة إجابات جيدة في الغالب ثم يعودون إلى أماكنهم فرحين، أما فئتنا ممن تلقوا تعليماً منزلياً فكانوا يشعرون بالخجل، وإجاباتهم فيما يظهر كانت أسوأ من إجابات الفئة الأولى، أما المسنون فكانت إجابات بعضهم ممتازة حقا، وكانت إجابات بقيتهم سيئة جداً.

وعندما نودي اسم سمينوف تقدم جاري بشعره الأشيب وعينيه اللامعتين واحتك بي في طريقة بخشونة ودأس على قدمي ثم اتجه إلى مائدة الممتحنين، وكان واضحاً من وجوه الأساتذة إنه أجاب إجابة جيدة تنبئ عن ثقة، وبعد أن عاد إلى موضعه أخذ كتبه وكراساته وانصرف من

غير أن ينتظر معرفة الدرجات التي حصل عليها.

ولما نودي اسمي توجهت إلى مائدة الأساتذة مع طالب نودي اسمه معي يقال له ايكونين، ولم يجب الأساتذة على تحياتنا، ونظر أحد الأساتذة الثلاثة إلى لحية ايكونين المدببة الحمراء، وشعرت باستياء شديد لعدم ردهم التحية، ولأنهم فيما يظهر خلطوا بيني وبين طالب المدارس العامة هذا الذي بجانبي، فتناولت بطاقة امتحاني من يد أحد الأساتذة وتأهبت للإجابة على السؤال الذي ألقاه ولكني وجدت نظره معلقا بايكونين، فرحت أطالع السؤال من جديد كما هو موضح في البطاقة ووجدتني أعرفه جيدا فانصرفت إلى متابعة امتحان جاري ذي اللحية الحمراء، وكان في الواقع فتى جريئا قرأ السؤال الذي في بطاقته بعدم اكتراث، وفتح فمه ليتكلم، وأصغي له الأستاذ، ثم سكت الطالب قليلا ليتذكر شيئا وساد الصمت دقيقتين، فقال أحد الأساتذة:

– لست الطالب الوحيد، فهل تنوي أن تجيب أم لا؟

ولكن ايكونين لم يعره التفاتا وظل يحملق في البطاقة، ثم وقف وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وأجال بصره في الأساتذة ثم أشار بيده وانصرف إلى مكانه. وتداول الأساتذة قليلا فيما بينهم بصوت منخفض ثم التفت أحدهم إلى جهتي ودعاني للإجابة، فانطلقت أجيب بطلاقة لأن السؤال كان ينصب على تاريخ روسيا الذي أعرفه جيدا، وبلغ من طلاقتي أنني عرضت عليهم أن أجيب على بطاقة أخرى حتى أؤكد

لهم أنني لست من طراز ايكونين، ولكن الأستاذ هز رأسه وقال:

– هذا يكفي يا سيدي.

فقمت إلى مكاني.

وفي امتحانات المواد التالية تعرفت بزملاء كثيرين وتوثقت صلتي بايكونين، أما سمينوف الذي ينوي دخول كلية الرياضيات معي فكان منطوياً جداً على نفسه وظل إلى نهاية الامتحان صامتاً منزوياً يعبث بأصابعه في شعره الأشيب. وكان حقا تلميذاً نابهاً جاء ترتيبه في النجاح الثاني، أما الأول فكان من طلاب المدارس العامة ويل القمة نحيلا أسمر البشرة طويل أصابع اليدين متآكل الأظافر، يكلم كل إنسان بلا تفرقة، وأحسست أن في سحنته جاذبية غير عادية ولاسيما في عينيه السوداوين وحركات شفتيه.

ولما حل يوم امتحان الرياضة كنت متوجسا من بابين في الجبر أهملت دراستهما فجلست أطالعهما وأنا في انتظار نداء أسمى، وإذا بفولودياونخليودوف يحضران لشهود الامتحان، ولما اكتشف نخليودوف الحقيقة جلس يراجع معي هذين البابين، وكان ضليعا في الرياضيات واضحا في شرحه مع الإيجاز حتى إني إلى يومي هذا مازلت أذكر شروحه الجيدة في ذلك اليوم

ولم يكد يفرغ من الشرح حتى نودي اسمي، وجذبت بطاقة فإذا

بالسؤال ينصب على الباب الذي لم أدرسه، ونظرت إلى بطاقة ايكونين لعلها تكون أحسن حالا فإذا بها تنصب على الباب الآخر الذي لم أدرسه، ولكن شرح نخليودوف كان حيا في ذهني فانطلقت أعيده على الأساتذة وظفرت بالدرجة النهائية.

وسار كل شيء على ما يرام إلى أن حل موعد امتحان اللغة اللاتينية، وأنا ثالث الطلبة، يأتي ترتيبي في الدرجات بعد سميونوف مباشرة، وكان ذلك كافيا لإشاعة الزهو في نفسي نظرا لإنني أصغر منه ومن الطالب الأول بكثير.

وكان الجميع يتحدثون منذ بداية الامتحان عن قسوة أستاذ اللغة اللاتينية إلى درجة التوحش وتلذذه برسوب التلاميذ ولاسيما من درسوا في منازلهم، وكان هذا الأستاذ لا يتكلم إلا اللاتينية أو اليونانية، بيد أن سان جيروم أخذ يشجعني ويذكرني إنني أترجم نصوص شيشرون، وهوراس من غير الرجوع إلى القاموس.

وكان يوم امتحان اللغة اللاتينية عبارة عن مذبحة حقيقية، لم يستطع العودة منها سالما سوى الطالب الأول وسيمنوف، فبدأت أتوجس من كارثة تنزل بي، وإذا بي أسمع اسمي واسم ايكونين، فتوجهت إلى مائدة الأساتذة فإذا الأستاذ المرهوب جالسا وحده.

وكان الرجل قصيراً نحيلاً أصفر الوجه يبدو عليه الإمعان في التفكير إلى درجة الهم، وقدم إلى ايكونين مجموعة خطب شيشرون

وطلب منه أن يترجم، وأخذ ايكونين يترجم سطوراً بمساعدة الأستاذ الذي كان يسعفه حينما يتوقف، ووثقت من تفوقي على هذا الطالب الضعيف فلم أتمالك نفسي من الابتسام، وكان المفروض أن أرضي الأستاذ بتلك الابتسامة المتهكمة ولكن النتيجة كانت عكس المراد تماما، فالتفت الأستاذ نحوي، وقال بلغة روسية ركيكة:

– ما دمت تبتسم فلا شك أنك تعرف أكثر مما يعرف، أجب أنت عن هذا السؤال.

وأدركت فيما بعد أن أستاذ اللغة اللاتينية كان يعطف على ايكونين، بل أن ايكونين كان يقيم ببيته، ولكني كنت أجهل ذلك فأجبت على السؤال بطلاقة، وإذا بالأستاذ يشيح بوجهه ويتجه إلى ايكونين فيشرح له السؤال ثم يصرفه.

ويسجل له أمامي أربع درجات، فقلت لنفسي أنه ليس قاسيا كما يزعمون.

وبعد انصراف ايكونين ظل الأستاذ خمس دقائق خلتها خمس ساعات يرتب أوراقه وكتبه وبطاقاته ويتمخط ثم يسترخي في مقعده وينظر في كل اتجاه إلا اتجاهي، بل وفتح كتابا وتظاهر بالقراءة فيه كأني غير موجود، فسعلت لأنبهه فقال كمن تذكر شيئا.

– آه! أنت أيضا بالطبع تريد أن تؤدي الامتحان، ترجم لنا شيئا.

ثم قدم لي مجموعة هوراس مفتوحة على نص خيل إلي أن لا أحد يقدر على ترجمته، فقلت له:

إني لم اقرأ من قبل هذا النص.

– وهل تريد أن تؤدي امتحانا فيما حفظته عن ظهر قلب؟ كلا! ترجم!

وحاولت أن أدرك المعنى قدر الاستطاعة، ولكن الأستاذ ظل يهز رأسه ويتنهد أسفا، ثم أغلق الكتاب بعصبية وألقى علي سؤالا في قواعد النحو وغاص في مقعده ولاذ بالصمت الخبيث، وكنت على أهبة الإجابة فانعقد لخبث سحنته لساني وخيل إلي أن كل ما قلته خطأ، وفعلا سمعته ينفجر بغضب:

– ليست هذه هي طريقة الاستعداد للتعليم العالي أيها الشاب! أنكل ما تفكر فيه هو ارتداء الزي الجامعي واختطاف أطراف من المعلومات، كلا يا سيدي يجب أن يكون استعدادك للمادة على أساس متين!

وتألمت جدا لأن ترتيبي سيتأخر عن الثالث، بل وخفت أن ارسب كلية، وشعرت بجرح أصاب كرامتي وبظلم جائر من هذا الرجل المغرض.

ونظر إلى فوجد شفتي تختلجان غضبا وأسى والدموع تترقرق في مقلتي، فخيل إليه أنها دموع التوسل كي يزيد درجاتي، فقال لي:

– ليكن يا سيدي، سأمنحك درجة مقبول مع إنك لا تستحقها

إكراما لصغر سنك وعلى أمل ألا تستخف بالدراسة في الجامعة.

وكان أحد الأساتذة قد اقترب منا فسمع هذه العبارة الأخيرة فنظر إلى نظرة استخفاف تمت بها شدة إحساسي بالظلم، فغامت عيناي لدرجة إنني رأيت الأستاذ الممتحن وكأنه على مسافة بعيدة، وراودتني نفسي أن أسبه وأصارحه برأيي ولكني لسبب ما لم أفعل، بل بالعكس انحنيت للأستاذين بطريقة آلية وفي أدب بالغ ثم غادرت المائدة مبتسما.

ولم أتخلص من الشعور بالظلم بسرعة، ولاسيما لأنني حرمت من المكان الثالث في ترتيب الناجحين، فصرت أؤدي الامتحان في بقية المواد بلا اكتراث أو اضطراب، وقررت ألا أجشم نفسي التفوق طوال دراستي الجامعية، بل أكون مثل أخي فولوديا من أوساط الطلبة.

لقد أصبح كل ما أفكر فيه هو الزي الجامعي وزحافتي الصغيرة التي سيهديني إياها أبي وحجرتي الخاصة وتمتعي بالحرية بعد دخولي الجامعة.

الاستعداد للجامعة

وعند عودتي من الامتحان الأخير في المعلومات الدينية في اليوم الثامن من مايو وجدت في البيت أحد صبيان الطرزي روزانوف، وكنت قد عرفت ذلك الطرزي المشهور وعرفت هذا الصبي لترددي على المحل أولا، ولحضور الصبي إلى البيت من قبل لتجربة ثوبي الجديد قبل تمامه، وهو اليوم قد أحضر الثوب ملفوفا في الورق بعد أن ركبت له أزرار مذهبة

لامعة.

وارتديت الزي الجديد وخيل إلي أنه ممتاز، وأن كان سان جيروم يرى أنه واسع بعض الشيء فوق الظهر، ونزلت إلى الطابق الأرضي وقد أشرق وجهي بابتسامة رضي لم أستطع كتمانها ودخلت حجرة فولوديا وأنا شاعر بنظرات الخدم التي ركزت في ثيابي من وراء الأبواب وأركان الدهليز، وتقدم الساقي فهنأني بالثوب الجديد وبدخول الجامعة، ثم سلمني مائة روبل هدية من أبي وأخبرني أن الحوذي كوزما والزحافة الصغيرة والجواد البني جميل ستكون كلها تحت تصرفي وحدي ابتداء من اليوم. وملأني الاغتباط الشديد لهذه العلامة الأولى على بلوغي مبلغ الشبان رسميا فلم أستطع كتمان عواطفي أمام الساقي ونفست عن نفسي بأول كلمة خطرت ببالي وكانت ثناء على المهر جميل وتغزلا في محاسنه، وعندئذ لمحت رءوس جميع الخدم تطل من وراء الأبواب محملقة في فلم أطق مغالبة شعوري الجياش وجريت مسرعا إلى حجرة فولوديا مخترقا البهو الكبير في ثوبي الجديد وأزراري اللامعة كأن ورائي من يطاردني.

ولما دخلت حجرة فولوديا سمعت صوت دبكوفونخليودوف اللذين حضرا خصيصا لتهنئتي وليقترحا أن نذهب جميعا إلى مكان ما لنتعشى ونشرب الشمبانيا احتفالا بدخولي الجامعة. قال ديمتري نخليودوف:

– مع أنني لا أهتم باحتساء الشمبانيا بصفة خاصة، ألا إني حريص

على الذهاب لكي أشرب نخب بداية صداقتنا الحميمة.

وأما دبكوف فقال أني أبدو في الزي الجديد شبيها بالكولونيل، ولم يقدم لي فولوديا التهنئة بل قال بلهجة جافة للغاية أننا نستطيع الرحيل إلى الريف في اليوم التالي ما دامت الامتحانات قد انتهت، ويبدو لي أنه رغم سروره لنجاحي كان مستاء لأني شببت الآن عن الطوق بصفة رسمية وأصبحت ندا له.

أما سان جيروم الذي كان قد حضر أيضا لتهنئتي فقال في كبرياء واضحة:

– أن مهمتي الآن قد انتهت، ولست أدري هل أديتها على ما ينبغي أم لا، ألا إني فعلت كل ما في وسعي وأستطيع منذ الغد أن ألتحق بعملي الجديد لدى الكونت.

ولم يسعفني لساني برد على كل هذه التهنئات التي وجهت لشخصي، لفرط شعوري بالسعادة، واحتلت وجهي ابتسامة عريضة بلهاء ألا إنها انتقلت كالعدوى إلى وجوه جميع من تحدثوا إلي.

هأنذا أخيراً بغير مؤدب، ولي حوذي خاص وزحافة خاصة ومهر خاص، وقد سجل اسمي بين طلاب الجامعة وثبت خنجر إلى حزامي، أني الآن شاب، وشاب سعيد فيما أعتقد!

وقررنا أن نتعشى في مطعم يار بعد ساعتين، ثم خرج فولوديا مع

دبكوف، وانصرف ديمتري نخليودوف لقضاء بعض المهام قبل العشاء، فوجدت أمامي ساعتين أقضيهما على ما أشتهى قبل حلول موعد المأدبة، فخرجت أتجول في جميع حجرات البيت فترة من الزمن، وانظر إلى نفسي في جميع مرايا البيت، مرة مزرر الثياب ومرة أخرى يدي في جيبي ومرة ثالثة مفكوك الأزرار جميعا، ومرة رابعة والزر الأعلى فقط هو المفكوك، ومرة خامسة والزر الأعلى فقط هو المحكم، ووجدت نفسي في جميع هذه الأشكال والأوضاع أنيقا.

ثم بدأت أخجل من إظهاري كل هذا السرور، فانصرفت إلى الإسطبل لأقلي نظرة على مهري جميل، والحوذي كوزما والزحافة الخاصة بي، كأني لم أر الثلاثة من قبل، ولما فرغت من ذلك عدت إلى البيت وتجولت بين الحجرات مرة أخرى وأنا أتطلع إلى المرايا وأحصي النقود في جيبي وقد فاض وجهي بالابتسام.

بيد أن ذلك كله لم يستغرق أكثر من ساعة ثم بدأت أشعر بالملل، أو الأسف لعدم وجود أحد كي يراني وأنا في أبهتي، وتشوقت الحركة والنشاط، ولذا أمرت بتجهيز المحفة الخاصة وقررت أن أنزل إلى المدينة لاشتري بعض ما يلزمني، وتذكرت أن فولوديا اشترى عند دخوله الجامعة طباقا وغليونا، وخيل إلي أنه من الضروري جدا أن أحذو حذوه.

وشقت بي الزحافة الطريق إلى الشوارع التجارية وقد خيل إلى أن الأنظار من جميع الجوانب مركزة على أزراري اللامعة وقبعتي وخنجري،

واقتربت الزحافة ن محل لبيع الصور فاشتريت صورة بألوان الماء لوجه امرأة بعشرين روبلا، ورأيت التاجر غير مهتم بي فأدركت أن ما اشتريته زهيد القيمة، فأردت أن أبرهن له على خطورة قدري، فنظرت إلى مقبض قلم رصاص مصنوع من الفضة وراء الزجاج، وقد كتب عليه أن ثمنه ثمانية عشر روبلا، فأشرت للرجل بطرف أصبعي أن يعطيني إياه ودفعت الثمن، وسألته عن أحسن محل لبيع الطباق والبيبات فقال أنه المحل المجاور، فتوجهت إلى هناك واشتريت طباقاً تركياً وغليوناً تركياً يسمونه الشبك مصنوعاً من خشب الورد حتى لا أتهم من أحد بتقليد فولوديا تقليداً أعمى. ثم عدت إلى زحافتي.

ورأيت سيمنوف يجتاز الشارع بخطواته السريعة وقد طأطأ رأسه فضايقني أنه لم يفطن لوجودي، فصحت بالحوذي في صوت مرتفع وأنا استرخي في مقعدي:

– أسرع!

وسرعان ما أدركت سمينوف فقلت له:

– كيف حالك؟

فأجابني وهو ماض في طريقه:

– تحياتي...

– لماذا لا أراك مرتديا الزي الرسمي للجامعة؟

فتوقف سمينوف وضاقت عيناه قليلاً إظهاراً لعدم اكتراثه بزيي الرسمي وزحافتي وظل يحملق في برهة صامتاً واستأنف سيره فأمرت كوزما أن يوصلني إلى حوانيت الوراقين، وبعد ذلك دخلت محلا للفطائر، فأكلت بشرهة ما لا يقل عن ثماني كعكات بسرعة فائقة.

ولما عدت إلى البيت شعرت بشيء من الحرقان في معدتي ولكني لم ألق إليه بالا، وتشاغلت بفحص ما اشتريت، فلما وجدت الصورة قبيحة، في نظري، أخفيتها عن الأنظار وكذلك مقبض القلم لم يعجبني فوضعته على المائدة وأنا أعزي نفسي بأنه مصنوع من الفضة، ولاشك في منفعته لطالب جامعي، ولكنني استعملت أدوات التدخين على الفور.

وملأت الشبك بالطباق السلطاني ثم وضعت فوقه قطعة متقدة من الفحم وجذبت نفسا... وكانت نكهة الطباق طيبة للغاية إلا أنها مرة، ثم لم يلبث الدخان أن خنق أنفاسي، إلا أني أصررت على المضي في المحاولة، وأن أنفث الدخان في حلقات من أنفي وفمي بأناة، فلم تلبث الحجرة أن امتلأت بسحب الدخان، وامتلأ فمي بالمرارة، وانتاب رأسي دوار.

وحاولت أن أنهض وأتطلع إلى منظري في المرآة وأنا أدخن بيبتي التركية، وكم كانت دهشتي حين وجدت نفسي أترنح، والحجرة تتراقص من حولي، ولم أصل إلى المرآة إلا بمشقة فإذا وجهي شديد الشحوب.

وبصعوبة استعطت أن أصل إلى الأريكة وأرتمي فوقها وخيل إلى أني على وشك الموت ففزعت فزعاً شديداً وفكرت في الاستغاثة كي يحضروا لي طبيباً على وجه السرعة، بيد أن الفزع لم يعمر طويلاً واكتفيت بالاستلقاء فترة مديدة واهن الأطراف، وفي رأسي صداع موجع، ونظراتي شاخصة إلى علامة الطباق التجارية المرسومة على الصندوق، وإلى أدوات التدخين الأخرى، وأيضاً إلى فتات الفطائر التي طردتها معدتي فأغرقت البساط، وقلت لنفسي في أسى:

– لابد أنه لم يتم نموي بعد ما دمت عاجزاً عن التدخين كسائر الناس!

ولما عاد نخليودوف وجدني في هذه الحالة الزرية، ولكن تجرع كوب من الماء كان كافياً لإنعاشي فاستطعت الخروج معه وهو يقول لي:

– أن التدخين حماقة لا حاجة بك إلى ارتكابها وتبديد نقودك فيها، لقد آليت على نفسي ألا أدخن ما حييت، والآن أسرع فيجب أن نمر على دبكوف.

مشاغل فولوديا ودبكوف

ما أن دخل ديمتري الحجرة حتى عرفت من سحنته ومشيته ومن أشاراته التي يتميز بها عندما يكون متكدر الخاطر وأخصها أن يطرف بعينيه ويشيح برأسه إلى أحد جانبيه... عرفت أنه في حالة ضيق صدر

وسخط على نفسه.

وكنت في المدة الأخيرة شرعت أرقب طباع صديقي، وأحكم عليها، بيد أن صداقتنا لم يلحق بها تغير من أثر تلك الملاحظات لأن الصلة التي بيننا كانت لم تزل في باكورتها وعنفوانها بحيث أنني من أي جهة نظرت إلى ديمتري رأيت فيه صفات الكمال.

وكان في ديمتري رجلان متميزان، كلاهما رائع في نظري، وأحد الرجلين كنت أحبه حباً شديداً، فهو مهذب طيب القلب رقيق مرح، وعندما كانت هذه الحالة تسيطر على ديمتري كانت تتأثر بها ملامحه ورنة صوته، وكان كل حركة من حركاته تنادي على رؤوس الإشهاد.

– أنا طيب رقيق عفيف، وسعيد برقتي وعفتي كما ترون!

أما الرجل الآخر وكنت قد بدأت أخيراً أتبينه وأنحني أمام عظمته، فكان بارد العاطفة صارماً على نفسه وعلى غيره، متكبراً متديناً إلى درجة التعصب ومتزمتاً في أخلاقه... وكان ديمتري في هذه الساعة عند دخوله الحجرة متقمصاً هذه الشخصية الأخيرة من شخصيته.

وبالصراحة التي كانت أساساً لا غنى عنه وشرطاً حتميا لعلاقاتنا قلت له ونحن في الزحافة.

– يؤلمني ويحزنني أن أراك ثقيل القلب متكدر الخاطر في يوم من أسعد أيامي.

فسألني:

– ماذا تعني؟

– أنك ولاشك تشعر بضيق أو انزعاج، فلماذا لا تفضي إلى بما يكدرك؟

فأجابني بأناة وهو يشيح برأسه في عصبية بعيداً عني، ووجنته تختلج.

– ما دمت قد وعدتك ألا أخفي عنك شيئاً، فليس لك أن ترتاب في وفائي بذلك العهد وتتهمني بالتكتم، وأعلم أنه من المستحيل على أي شخص أن يكون في جميع الأحوال في حالة نفسية واحدة لا تتغير، وبفرض أن شيئاً أزعجني، فليس في استطاعتي شخصياً أن أتبين ما هو هذا الشيء.

ولم أقل له شيئاً بعدها، ولكنب قلت في نفسي:

– يا له من رجل صريح شريف الخلق نبيل الطباع!

وظللنا بقية المسافة إلى دار دبكوف ملتزمين الصمت، وكان مسكن دبكوف بديعاً للغاية، أو هكذا بدا لي حينئذ فقد كان مزدانا بالأبسطة والصور والستائر واللوحات والمقاعد الوثيرة في كل مكان، وقد علقت على الجدران بنادق ومسدسات وأكياس للطباق ورؤوس حيوانات متوحشة، وما أن وقع نظري على مكتبه ذاك حتى أدركت على الفور من

الذي كان يقلده فولوديا في طريقة تزيين حجرته الخاصة.

وقد وجدنا فولودياودبكوف يلعبان الورق، وهناك سيد ثالث لا أعرفه (ولابد أنه كان قليل القيمة كما يدل على ذلك مسلكه المتضائل) جالساً إلى المائدة معهما يرقب اللعب باهتمام بالغ، وكان دبكوف مرتديا عباءة من الحرير وخفين رقيقين، أما فولوديا فكان جالساً في قميصه الأبيض قبالة صديقة على الأريكة، ومن منظر وجهه المحتقن ونظرته المستاءة التي حدجنا بها عندما أطللنا في أوراقه، أدركت أنه مستغرق في اللعب، ولما رآني ازداد احمرار وجهه وقال لدبكوف:

– هيا، حان دورك فالعب.

ورأيت أنه مستاء لأني عرفت بأقدامه على لعب الورق، ولكن نظرته كانت خالية من الخوف أو الاضطراب وكأنه يقول لي:

– أجل أني ألعب الورق، وأنت لست متعجباً لذلك إلا لأنك لم تزل صغير السن، فليس هناك ما يعاب على هذا اللعب، بل أنه ضروري محتوم في سننا هذه.

وقد أدركت على الفور شعوره، وفهمته.

أما دبكوف فإنه بدلاً من توزيع الورق كما هو مفروض عليه، نهض من مجلسه وصافحنا وقدم إلينا مقعدين، وغليونين للتدخين رفضناهما، وعندئذ قال دبكوف:

– ها هو ذا الدبلوماتي العظيم رجل اليوم! أنه وربي يشبه الكولونيل تمام الشبه!

فارتسمت على وجهي ابتسامة رضا بلهاء، ووقفت متهيبا أمام دبكوف، تهيب فتى في السادسة عشرة في محضر ضابط أركان حرب في السابعة والعشرين من عمره يقول عنه جميع رؤسائه ومن يكبرونه سنا أنه شاب ألمعي جداً، يرقص ويتكلم الفرنسية بطلاقة، ومع أنه في قرارة نفسه يحتقر حداثة سني، إلا أنه كان يجتهد اجتهاداً واضحاً في إخفاء تلك الحقيقة.

وعلى الرغم من احترامي الكامل له كنت دائماً –الله أعلم لماذا– أتجنب طوال مدة تعارفنا النظر إلى عينيه لما أجد في ذلك من مشقة وحرج، وقد لاحظت بعد ذلك أن هناك ثلاث فئات من الناس يصعب على جداً أن أنظر في عيونهم، الفئة الأولى تضم من هم أسوأ مني بكثير، والفئة الثانية تضم من هم أفضل مني بكثير، والفئة الثالثة تضم من لا أستطيع مصارحتهم ببعض أمور كلانا يعرفها، ولا يجسرون هم على مفاتحتي بها.

ولست أدري هل دبكوف أفضل مني أو أسوأ، ولكني واثق من شيء واحد، هو أنه كثيراً ما كان يكذب ولا يعترف مطلقاً بذلك، وقد فطنت إلى ذلك الضعف فيه ولكني لم أستطع التجاسر على الكلام في ذلك.

وقال فولوديا وهو يرفع أحد كتفيه مثل والدنا.

– فلنلعب دوراً آخر.

فقال دبكوف:

– لا يستطيع الإنسان أن يفلت من هذا الشاب! سنلعب فيما بعد، أو فليكن دوراً واحداً، وزع أنت الورق.

وفيما هما يلعبان جعلت أرقب أيديهما، وكانت يد فولوديا كبيرة جميلة، وكان يبسط أبهامه بعيداً عن سائر أصابعه المطوية وهو يمسك بأوراقه بأسلوب يشبه أسلوب أبي حتى أنني في بعض الأحيان كان يخيل إلى أن فولوديا يفعل ذلك عن قصد كي يبدو أقرب ما يمكن إلى مسلك الكبار، ولكني عندما نظرت إلى وجهه استطعت أن أتبين أنه لم يكن يفكر في أي شيء عدا لعبته.

أما يدا دبكوف فكانتا على العكس صغيرتين جداً وبدينتين وأصابعه لينة بارعة أليق ما تكون للتزين بالخواتم...

ولابد أن فولوديا خسر الدور، لأن الشخص الثالث الذي كان يرقب اللعب وينظر في أوراقه قال أن أخي شيء الحظ للغاية أما دبكوف فأخرج مفكرته وسجل فيها شيئاً ثم قال لفولوديا بعد أن أطلعه على ما كتبه:

– مضبوط؟

فقال فولوديا وهو ينظر إلى مفكرته بشرود مصطنع:

– نعم، والآن هيا بنا نرقص.

وصحب فولودياد‌بكوف في محفته وأخذني ديمتري في فيتونه، وسألت ديمتري:

– ماذا كانا يلعبان؟

– لعبة بيكيه، وهي لعبة حمقاء، والمقامرة على كل حال كلها حماقة أيا كان نوعها.

– وهل يلعبان بمبالغ كبيرة؟

– ليست كبيرة جداً، ولكنها على كل حال مقامرة سيئة في حد ذاتها.

– ألا تلعب أنت القمار؟

– كلا، فقد آليت على نفسي ألا ألعب، أما دبكوف فلا يستطيع أن يمنع نفسه من اللعب مع أي شخص تصل يده إليه، فهو يكسب في الغالب.

– ولكن هذا ليس سلوكاً شريفاً من جانبه، فقد يكون فولوديا غير كفء في اللعب لدبكوف.

– أنه طبعا سلوك غير صائب، ولكنه ليس سلوكاً بالغ السوء، قد يكون يحب لعب الورق ويحسن اللعب به، ومع ذلك فهو إنسان ممتاز.

– لم يخطر ببالي من قبل...

فقاطعني ديمتري قائلا:

– يجب ألا تظن به السوء، فهو في الحقيقة شاب ممتاز جداً، وأنا مولع به للغاية، وسأظل مولعاً به دواماً بالرغم من ضعفه في بعض النواحي.

وخيل إلى لسبب ما أن حماسة ديمتري في الدفاع عن دبكوف راجعة إلى عناده، فهو لا يريد أن يعترف بامتناعه عن محبة دبكوف واحترامه حتى لا يتهمه أحد بالتذبذب في عواطفه، فديمتري من أولئك الناس الذين يحبون أصدقائهم مدى العمر، لا لأن أصدقائهم يظلون على الدوام أعزاء عليهم، بل لأنهم يعتبرون التراجع عن محبة الصديق ولو لأسباب قوية أمراً يتنافي مع الوفاء والشرف.

الاحتفال بنجاحي

كان دبكوفوفولوديا يعرفان الجميع في مطعم يار بأسمائهم، وكان الجميع ابتداء من البواب إلى صاحب المطعم يبدون لهما احتراماً عظيماً، وعلى الفور اقتادونا إلى مقصورة خاصة، وقدموا إلينا طعاماً فاخراً قام بانتقائه دبكوف من القائمة الفرنسية، وأعدوا لنا قنينة من الشمبانيا

المثلجة حاولت عبثا أن أنظر إليها في عدم اكتراث، وكانت موضوعة في وعاء من الفضة اللامعة.

وانقضى الطعام على أحسن حال وأسعده، مع أن دبكوف جعل على عادته الجارية يروي أغرب الحوادث التي تستعصى علي التصديق، ومن بينها روى لنا كيف أن جدته قتلت بالرصاص ثلاثة من اللصوص كانوا قد هاجموها، قتلتهم برصاص طبنجة من الطراز القديم، وعندئذ أحمر وجهي وغضضت طرفي وأشحت بعيداً عنه. واستولى الفزع على فولوديا بشكل واضح عندما فتحت فمي، وكان فزعه بغير موجب لأني لم أقل شيئاً يعاب على أو على أي إنسان فيما أذكر.

ولما قدمت الشمبانيا قام الجميع بتقديم التهنئة فشربت مع دبكوف وديمتري وبادلتهما القبلات، وصار من المسموح لي بعد ذلك أن أخاطبهما مع رفع التكليف، وأردت أن أرد التحية لأصدقائي وكنت أجهل من صاحب زجاجة الشمبانيا (وقد عرفت فيما بعد أن جميع المصروفات كانت قسمة بين ثلاثتهم) وكنت حريصاً جداً أن استعمل نقودي الخاصة في هذه المناسبة، تلك النقود التي ظلت أتحسسها في جيبي طول الوقت، وأخيراً أخرجت من جيبي ورقة ذات عشرة روبلات وناديت الساقي وقلت له في همس ولكن بحيث يسمع الجميع كلماتي:

– من فضلك أحضر لنا نصف زجاجة شمبانيا!

فأحمر وجه فولوديا احمراراً شديداً وبدأ يهز كتفه هزاً عنيفاً ويرمقني

ويرمق الآخرين بفزع، حتى أيقنت أنني ارتكبت خطأ كبيراً فاضحاً، ومع هذا أحضر الساقي الشمبانيا وشربناها بسرور عظيم.

وظلت الأمور تسير في جو من المرح، ودبكوف يكذب بلا توقف، وفولوديا أيضاً يروي حكايات مضحكة بطريقة بارعة لم أكن أظنه يصل إلى مستواها، وجعلنا نضحك مما يرويه ضحكاً شديداً، وألطف ما في الأمر أن أخي كان يروي تلك النوادر بوجه جاد كل الجد مما يزيد في قيمة الفكاهة.

ولما حاولت أنا أن أروي فكاهات على هذه الطريقة ظهر عليهم الفزع ولم يتطلعوا إلى وجعي وأنا أتكلم فماتت فكاهاتي في مهدها، وأخذ دبكوف يسخر مني، ولكني كنت سعيداً جداً تحت تأثير الشمبانيا التي شربتها، ومسروراً بصحبة هؤلاء الكبار. وكنا جميعا سكارى فيما عدا ديمتري الذي ظل محتفظا بهدوئه وجده مع أنه شرب مقداراً مساوياً لما شربناه، فكان لاتزانه بعض التأثير الذي لطف من جموح مرحنا.

وأخيراً قال دبكوف:

– والآن اسمعوا أيها السادة، يجب بعد انتهاء العشاء أن تتولى تدشين صديقنا الدبلوماتي، ما رأيكم أن نذهب جميعا لدى العمة؟ يجب أن نوطد له مركزاً لديها.

فقال فولوديا معترضاً:

– يا له من متزمت عفيف! أنك عفيف متزمت يا نخليودوف! تعال معنا وسترى بنفسك أن العمة سيدة فاتنة.

فقال ديمتري وقد اشتد احمرار وجهه:

– أني يقينا سوف لا أذهب، ولا يمكن أن أذهب، وأكثر من هذا أني لن أدعه يذهب معكما إلى هناك!

فالتفت دبكوف نحوي وقال:

– من تعني؟ الدبلوماتي؟ أتريد أن تذهب معنا أيها الدبلوماتي عند العمة؟ انظر إليه يا رجل كيف تدفق كيانه كله بالبشر لمجرد الإشارة إلى العمة؟

فقال ديمتري وهو ينهض من مقعده ويذرع المقصورة ذهاباً وإياباً من غير أن ينظر نحوي:

– لم أقصد أنني سوف لا أدعه، بل قصدت أن أقول أني لا أنصح له ولا أحب له أن يذهب إلى هناك، أنه لم يعد طفلا، وأن كان راغباً في الذهاب إلى هناك ففي استطاعته أن يذهب بمفرده من دونكما، ولكنكما كان ينبغي أن تخجلا من نفسيكما، ولاسيما أنت يا دبكوف، فما تفعله ليس صواباً، وأنت تريد أيضاً أن تجر الآخرين إلى فعل ما تفعل من السوء والخطأ.

فغمز دبكوف بعينه لفولوديا وقال:

– وما الضرر في أن أدعوكم جميعا إلى بيت عمتي لتناول قدح من الشاي؟ وعلى كل حال أن لم يكن هذا مستحسنا في نظرك، فسأذهب أنا وفولوديا، أتأتي معي يا فولوديا؟

فأومأ فولوديا برأسه إيجاباً وقال:

– سنذهب إلى بيت عمتك ثم نعود إلى حجرتي نستأنف لعبة البيكيه.

وعندئذ اتجه ديمتري نحوي، وقال لي:

– وأنت؟ أتريد أن تذهب معهما أم لا؟

فأجبت وأنا أفسح لهما مكاناً فوق الأريكة ليجلسا بجواري

– كلا، سوف لا أذهب، أنا لا أريد أن أذهب إلى أي مكان، وما دمت تنصحني ألا أذهب فسوف لا أذهب مهما كانت الأحوال.

وساد الصمت، فقلت بعد قليل:

– كلا، لا أستطيع أن أقول بأمانة أني لا أريد أن أذهب معهما، ولكني مسرور لأني سوف لا أذهب.

فأجابني ديمتري قائلاً:

– هذا أفضل، يجب أن تعيش على منوالك الخاص ولا تنقاد لأحد، فتلك هي الطريقة المثلى.

وكان هذا الخلاف ذا أثر غير منتظر، لأنه لم يكدر صفاء مرحنا، بل زاد من ذلك المرح، فظهرت على ديمتري علامات السرور لأنه تمكن من إسداء معروف، مما أرضاه عن نفسه فصفق وطلب زجاجة من الشمبانيا (وذلك أمر مناقض لمبادئه) ثم دعا شخصاً غريباً إلى مقصورتنا وسقاه كمية كبيرة من النبيذ، وشرع يغني بصوت مرتفع وطلب من الجميع أن ينضموا إليه في الغناء صائحاً:

– أننا في يوم احتفال، فلنعط الطرب حقه، أني ابتهاجاً بدخوله الجامعة سأسكر للمرة الأولى في حياتي، لا أستطيع أن أغالب نفسي!

وكان هذا المرح مناسباً جداً لشخصية ديمتري لأنه كان أشبه ما يكون بأب حنون فرح بأولاده ويريد أن يدخل السرور إلى نفوسهم ويريهم مبلغ اقتداره على الطرب والسرور في حدود الاحتشام والخلق الكريم.

ويظهر أن مرح ديمتري كان من النوع المعدي، فانتقلت العدوى إلينا جميعا، حتى بلغ ما احتساه كل منا أكثر من نصف زجاجة شمبانيا، وكنت في تلك الحالة الرائعة من الانتشاء عندما خرجت إلى قاعة المطعم العامة لأدخن سيجارة اعطانيهادبكوف، فلما نهضت من مقعدي لاحظت أن رأسي تدور قليلاً، وأن قدمي ويدي لا تكون في حالة طبيعية

إلا إذا ركزت انتباهي عليها، وإلا جنحت رجلاي إلى جانب ثم إلى الجانب الآخر ورسمت يداي في الهواء حركات مختلفة لا ضرورة لها، فركزت انتباهي كله على أطرافي وأمرت يدي أن ترتفعا لتزررا سترتي وترجلا شعري، فإذا مرفقاي يرتفعان إلى أعلى مما ينبغي بشكل ظاهر، ولما أمرت رجلي أن تحملاني إلى الباب فإذا بحركتهما تتراوح بين العنف الشديد والبطء الشديد وقد أصرت قدمي اليسرى على الوقوف على الكعب دون بقية القدم.

ولما رآني فولوديا أترنح ابتسم، فابتسمت واستأنفت السير نحو الباب لأخرج إلى قاعة المطعم العامة كي أدخن.

المشاجرة

وفي القاعة العامة للمطعم جلس إلى مائدة صغيرة رجل قصير بدين في ثياب مدنية ذو شارب أحمر منصرفاً إلى تناول طعامه، وإلى جواره جلس رجل طويل القامة أسمر اللون حليق الشارب، وكانا يتحدثان باللغة الفرنسية، وضايقني نظراتهما، بيد أني صممت رغم كل شيء على إشعال سيجارتي من الشمعة الموضوعة على مائدتهما، ونظرت فيما حولي كي أتجنب نظراتهما، ثم اتجهت إلى المائدة وقربت سيجارتي من الشعلة، ولما أتقدت السيجارة تمام الاتقاد لم أتمالك نفسي من النظر إلى الرجل القصير الذي كان يأكل فوجدت عينيه الرماديتين مثبتتان علي بنظرة استهجان.

وفيما أنا أستعد للابتعاد تحرك شاربه الأحمر، وقال بالفرنسية:

– أنا لا أحب أن يدخن الناس وأنا أتناول طعامي يا سيدي العزيز.

فغمغمت بجواب غير مفهوم، ولكن السيد ذا الشارب الأحمر استطرد يقول بحدة:

– كلا يا سيدي، أنا لا أحب ذلك!

ونظر إلى جليسه الحليق الشارب كأنه يدعوه إلى الإعجاب بالأسلوب الذي سيؤدبني به ثم استطرد يقول لي:

– ولست أحب كذلك أن تبلغ بالناس الوقاحة يا سيدي العزيز أن ينفخوا دخان سجائرهم في أنفي، لا أحب مثل هؤلاء الناس إطلاقاً!

فأدركت على الفور أن الرجل يوبخني، وخيل إلي لأول وهلة أني مخطئ خطأ شديداً جداً، فأسرعت أقول:

– لم يخطر ببالي أن ذلك سيضايقك

فصاح الرجل:

– عظيم، أنت لم يخطر ببالك أنك سيئ التربية، ولكن هذا خطر ببالي!

فسألته غاضباً، وقد شعرت أنه يتعمد أهانتي:

– أي حق لك في أن تصرخ في وجهي هكذا؟

– أنه حقي الكامل في ألا أسمح لأي إنسان أن يعاملني بوقاحة، وأني مستعد على الدوام أن ألقن الأغرار من أمثالك مبادئ التهذيب السليم، ما أسمك يا سيدي؟ وأين تقيم؟

واستبد بي الغضب إلى الغاية، وارتجفت شفتاي وتلاحقت أنفاسي، ومع ذلك شعرت أني مذنب على نحو ما، وربما كان سبب ذلك الشعور أني أفرطت في احتساء الشمبانيا، ولم أقل للرجل أية كلمة تشتم منها رائحة الاهانة بل على العكس خرجت من شفتي الأصوات التي تدل على أسمي وعنوان مسكني في أروع صورة ممكنة، فأجابني قائلاً:

– أسمي هو كولبيكوف، وسأحملك على أن تكون أوفر تهذيباً في المستقبل، وستأتيك أخباري...

وكان هذا الحوار كله بيننا باللغة الفرنسية، ولم أزد على أن قلت له، وأنا أجتهد في أن أجعل صوتي أثبت ما يمكن:

– سيسعدني هذا جداً!

ثم عدت إلى مقصورتنا وفي فمي سيجارتي التي أوشكت أن تنطفئ، ولم أشر إلى ما حدث في القاعة الخارجية لأخي أو صديقي، ولعل ذلك لأنهما كانا مشتبكين في مناقشة حامية، ولكني جلست بمعزل في أحد الأركان لأفكر في ذلك الحادث العجيب الذي وقع لي،

وأخذت كلمة "التربية" ترن في أذني فتزيد من حدة غضبي شيئاً فشيئاً، وكان سوار الخمر الذي شعشع في رأسي قد تبخر عن آخره، وأخذت أفكر في مسلكي، فخطر لي خاطر رهيب، وهو أني سلكت سلوك الجبناء، وجعلت أسأل نفسي:

– أي حق له في التهجم على؟ لماذا لم يقل ببساطة أني ضايقته أو أزعجته؟ أنه هو المخطئ، ولكن لماذا أذن عندما قال لي أني سيئ التربية لم أقل له: "أن سيئ التربية يا سيدي هو الذي يسمح لنفسه بالتهجم على الناس والإساءة إليهم" أو لماذا لم أصرخ في وجهه بكل بساطة: "اخرس! اضبط لسانك!" أن ذلك حريا أن يبدو رائعا، ولكن لماذا لم أدعه إلى المبارزة؟ كلا، أني لم أفعل شيئاً من ذلك بل ابتلعت الاهانة كما يفعل الجبان الحقير.

وأخذت ترن في أذني بلا توقف، وبصورة مثيرة عبارته لي:

– أنك سيئ التربية يا سيدي.

فقلت لنفسي:

– كلا، لا أستطيع أن أترك المسألة تقف عند هذا.

ونهضت وقد انعقد عزمي على العودة إلى ذلك الرجل لا قول له شيئاً فظيعاً رهيباً، أو ربما ضربته على أم رأسه بالشمعدان إذا وجدت ذلك لائقاً في ضوء الظروف المحيطة بالمناقشة.

وأخذت أفكر في هذه النية بسرور عظيم، ومع ذلك كم كان ذعري شديداً عندما دخلت القاعة العامة مرة أخرى فإذا كولبيكوف لحسن الحظ قد انصرف، ولم أجد عند المائدة إلا خادماً ينظفها.

وأردت أن أخبر الخادم بما حدث وأثبت له بوضوح أنني لست ملوما على الإطلاق، بيد أني غيرت رأيي لسبب ما وعدت إلى مقصورتنا وأنا في أشد حالات الكآبة والضيق، وفطن دبكوف إلى ذلك فسألني:

– ماذا جرى لعزيزنا الدبلوماتي؟ لعله الآن يقرر مصير أوروبا.

فقلت له بضيق وأنا أشيح عنه:

– أوه! دعني وشأني.

ثم أخذت أذرع الحجرة وأنا أفكر في أن دبكوف ليس شخصاً ظريفاً على الإطلاق، فهو لا يكف عن السخرية مني فيلقبني دائماً بالدبلوماتي وهو لقب لا أستحسنه، وكل ما يصلح له هذا الضابط هو اقتناص نقود فولوديا في القمار والذهاب إلى عمته الغامضة، وهذا كله ليس فيه ما يستحب، وكلامه كله أما تهكم أو أكاذيب أو ضحك على حساب شخص غائب، أنه رجل غبي وخبيث من قمة الرأس إلى أخمص القدم.

وقضيت في هذه الأفكار نحو خمس دقائق أخذت عداوتي فيها لدبكوف تزداد، أما دبكوف نفسه فكان منصرف الذهن عني تماماً، مما

زاد سخطي عليه حتى أنني حنقت على فولوديا وديمتري لاشتغالهما بالحديث معه.

وفجأة قال دبكوف وهو ينظر نحوي نظرة خيل إلي أنها ساخرة خادعة:

– أتدرون ماذا يجب أن نصنع أيها الصديقان؟ يجب أن نصب شيئاً من الماء فوق رأس الدبلوماتي، فهو في حالة سيئة!

فأجبته وأنا ابتسم ابتسامة صفراء:

– بل أنت الذي في حالة سيئة!

ويظهر أن إجابتي أدهشت دبكوف، بيد أنه أشاح بوجهه عني بلا اكتراث واستأنف حديثه مع فولوديا وديمتري.

وكان من المستطاع أن أشترك في الحديث أو أحاول ذلك، ولكنني شعرت أني سوف لا أحسن الاندماج، فتراجعت إلى الركن وانزويت فيه إلى وقت انصرافنا.

وبعد أن سوى الحساب وأخذنا نرتدي معاطفنا، سمعت دبكوف يقول لديمتري بلهجة ذات مغزى:

– أعتقد أن الفيلسوفين سيذهبان إلى البيت للحديث في موضوع

الحب، أما نحن فيستحسن أن نذهب إلى عمتنا العزيزة، فبيتها سيكون أخف دماً وأظرف من صداقتكما ذات الطعم اللاذع.

فانفجرت وأنا أتجه نحوه ملوحاً بيدي:

– كيف تجرؤ أن تتكلم بهذه الصورة عنا ساخراً منا؟ كيف تجرؤ أن تسخر من مشاعر لا تفهمها؟ أنا لا أسمح بذلك، أمسك لسانك!

وبعد أن بلغ صوتي نهاية الارتفاع سكت فجأة وأنا لا أدري ماذا أقول بعد ذلك، وقد لهثت أنفاسي اضطراباً وغيظاً، وأخذ دبكوف في أول الأمر بالمفاجأة، ثم حاول أن يبتسم ويعتبر المسألة مزاحاً، ولكنه أخيراً أدهشني دهشة بالغة إذ ظهر على وجهه الذعر وغض بصره وقال في مراوغة:

– لم أسخر من مشاعركما على الإطلاق، وإنما هي طريقتي في الكلام.

فصحت به:

– من الخير لك ألا تفعل ذلك.

وفي الوقت نفسه كنت أشعر بالخجل والأسف لحالة دبكوف الذي ارتسمت على ملامح وجهه الجميلة أمارات الأسى الحقيقي.

وفي صوت واحد سألني فولوديا وديمتري:

– ماذا جرى لك؟ أن أحداً لم يقصد أهانتك.

– بل هو قصد اهانتي!

فقال دبكوف وهو منصرف حتى لا يسمع ما يمكن أن أقوله بعد ذلك:

– أن شقيقك يا فولوديا لا يطاق.

ولعلني كنت حريا أن أجرى في أعقابه وألقى عله مزيداً من الاهانات والمثالب، لولا أن الخادم الذي كان حاضراً مشاجرتي مع كولبيكوف تقدم وأعطاني معطفي فهدأت على الفور وتصنعت من الغضب –في وجود ديمتري– ما وجدته ضرورياً حتى لا يبدو هدوئي المفاجئ غريباً في نظره، وفي اليوم التالي تقابلت أنا ودبكوف في حجرة فولوديا، ولم نشر إلى تلك المسألة، ولكن أصبح من العسير على كل منا أن ينظر في وجه الآخر، سواء في ذلك أنا أو دبكوف.

أما مشاجرتي مع كولبيكوف فظلت ذكراها حية في ذاكرتي سنوات طويلة، مع أنه لم يسمعني شيئاً من أخباره تلك الليلة أو الأيام التالية، وظللت خمس سنوات كاملة أغلى وأصرخ كلما تذكرت تلك الاهانة التي مضت من غير تعقيب أو ثأر، وكان سلواني الوحيد كلما تذكرت ذلك الموقف الذليل هو سروري بموقفي الحازم الحافل بالرجولة أمام وجه دبكوف.

ولم أستطع أن أنظر للمسألة نظرة جديدة إلا بعد سنوات طويلة جداً، فبعد نموي ونضوجي صرت أذكر مشاجرتي مع كولبيكوفبتفكه، وأندم كثيراً على التجريح المتجني الذي نلت به من ذلك الفتى المرح الظريف دبكوف.

وعندما خلوت في تلك الليلة بديمتري رويت له كل ما حدث بيني وبين كولبيكوف، ووصفت له ذلك الرجل وصفاً دقيقاً، فدهش دهشة بالغة وقال لي:

– أني أعرف هذا الشخص، تصور! أن هذا المدعو كولبيكوف نذل معروف، غشاش في ألعاب القمار ولكنه مشهور على الأخص بالجبن، فقد طرد من فرقته بالجيش بعد أن عرف زملاؤه أن أحدهم لطمه على وجهه فلم يبارزه وابتلع الاهانة، ترى أين استجدت له هذه البسالة؟

ونظر إلي بابتسامة حانية وسألني:

– أواثق أنت أنه لم يقل سوى "سيئ التربية"؟

فأجبته وقد أحمر وجهي:

– لم يقل سوى هذا

فقال لي ديمتري مواسياً:

– وهذا في حد ذاته سيئ، ولكن لا بأس، ليس هناك ضرر ذو بال.

وبعد ذلك بسنوات طويلة، عندما أعدت التفكير في المسألة بذهن صاف ونفس هادئة، خطر ببالي أن كولبيكوف لعله انتهز هذه الفرصة ليثأر سمعته من اللطمة المشهورة بمحضر من جليسة الأسمر الحليق الشارب.

وماذا في ذلك؟ لقد استعملت أنا الأسلوب عينه حين ثأرت لنفسي من نعته لي بسوء التربية، فصببت حنقي وتهوري على دبكوفالبرئ.

تأهبي للزيارات

وكانت أول فكرة خطرت لي عندما استيقظت في اليوم التالي هي المغامرة التي وقعت لي مع كولبيكوف، ومرة أخرى قلت لنفسي ما كان ينبغي أن أصنع بالرجل ما صنعت، وأخذت أتمشى في الحجرة بعصبية زائدة، ولكن دون جدوى، فلم أستطع أن أجد للمسألة حلا، ثم أن هذا كان آخر يوم أقضيه في موسكو، وأوامر والدي تحتم على أن أقوم ببعض الزيارات، وكان قد أعد قائمة بتلك الزيارات بنفسه، والواقع أن اهتمام أبي بالإشراف علينا لم يكن منصباً على نواحي التعليم أو الأخلاق مبلغ انصبابه على العلاقات الدنيوية والمجاملات الاجتماعية.

ووجدت مكتوباً على الورقة بخط يده السريع المدبب:

"أولاً زيارة الأمير ايفان ايفانتش بغير تخلف، وثانياً زيارة إلى آل ايفين بغير تخلف، وثالثاً زيارة للأمير ميخايلو، ورابعاً زيارة للأميرة

نخليودوفا والسيدة فالخينا أن أمكن، وأيضاً إلى مدير الجامعة والعميد والأساتذة".

وقد أفلح ديمتري في إقناعي بعدم القيام بالزيارات المنصوص عليها في البند الأخير، وبين لي أن هذه الزيارات ليست غير ضرورية فحسب بل أنها أيضاً غير لائقة، أما سائر الزيارات المشار إليها فيجب القيام بها في ذلك النهار.

والحقيقة أن الزيارتين اللتين خصهما الوالد بكلمة بغير تخلف هما اللتان كانتا تسببان لي قلقاً وهماً كثيراً، فالأمير ايفان ايفانتش كان قائداً عاماً متقدماً في السن واسع الثراء يعيش بمفرده، وتصور أنني أنا الطالب ذو الستة عشر ربيعاً أجد نفسي مضطراً لمجاذبته الحديث بصفة مباشرة، أن ذلك لا يمكن أن يؤدي إلى ظهوري بمظهر أحسد عليه.

وآل ايفين كانوا أيضاً من الأثرياء، ووالدهم موظف كبير في الحكومة المدنية بدرجة جنرال ولم يزر بيتنا ألا مرة واحدة على أيام جدتنا، أما بعد وفاة الجدة فقد أظهر لنا أصغر أبنائه أزورارا وتظاهر بالترفع والاستعلاء علينا، أما أكبر الأبناء فقد بلغ إلى علمي أنه أتم دراسة القانون وعين في وظيفة بالعاصمة بطرسبرج، وأما الأوسط سيرجى الذي كانت لي به بعض المعرفة فيما مضى فيقيم أيضاً في سان بطرسبرج، وهو ملازم ثان ضخم بدين في حرس الياوران ويعتبر بمثابة وصيف للقيصر.

وكنت في شبابي لا أكره الاختلاط بمن يعتبرون أنفسهم أرفع مني مقاماً فحسب، بل كان هذا الاختلاط يؤلمني جداً ألما لا يطاق، لخوفي المستمر من وقوع اهانة لي، ويسبب توتر ملكاتي الذهنية جميعا كي أثبت لهؤلاء الناس قيمتي واستقلالي.

ولما كنت انتويت مخالفة البند الأخير من أوامر والدي، فقد شعرت أنني يجب أن ألطف من وقع المخالفة بالتدقيق في تنفيذ بقية الأوامر، وجعلت أذرع حجرتي وأنا أنظر إلى ثيابي المبعثرة فوق المقاعد، وإلى خنجري وقبعتي، ثم تأهبت لارتداء تلك الثياب، وبعد قليل حضر العجوز جراب لتهنئتي ومعه ايلنكا. والأب جراب ألماني أعتنق الجنسية الروسية، وهو رجل معسول اللسان متملق، كثيراً ما يفرط في الشراب وهو يحضر لدينا في الغالب حين يحتاج إلى شيء. ومع أن والدي كان يقدم له الطعام في مكتبه أحياناً، إلا أنه لم يدعه البتة لتناول الطعام معنا، وكان الرجل يمزج تسوله الملح بشيء من الطيبة السطحية واستغلال الألفة القديمة ببيتنا، حتى كان الجميع يعتبرون حضوره إلينا آية على تعلقه ووفائه لنا، بيد أني كنت لسبب ما لا أحبه مطلقاً، وكلما تكلم شعرت بالخجل له.

وشعرت باستياء شديد لقدوم هذين الضيفين، ولم أبذل جهداً يذكر لإخفاء ذلك الاستياء، وكان ايلنكا تلميذاً مثلي دخل الجامعة إلا أن ظروفه كانت تجعلني أنظر إليه من عل، وساءني أن يصبح هذا الوضيع طالباً مثلي، ورحبت بهما في برود، ولم أطلب إليهما الجلوس ظناً مني

أنهما سيجلسان من تلقاء نفسيهما، وأمرت على الفور بإعداد زحافتي.

وكان ايلنكا شاباً بارعاً للغاية رقيقاً محترماً بيد أنه ذو نزوات وتقلبات غير مفهومة، لأنها تبدو للناس بغير سبب، فهو تارة في جو واجم باك، وفي اللحظة التالية يميل للضحك بلا مناسبة، أو يتلمس الإحساس بالاهانة لا وهي عذر، ويبدو أنه عند قدومه كان في الحالة الأخيرة، فلم يقل شيئاً بل جعل يرمقني بغضب ويرمق والده بغضب كذلك، وعندما يوجه إليه أحدنا الخطاب يبتسم ابتسامة إذعان وخضوع مغتصبة كان من عادته أن يخفي تحتها مشاعره، ولاسيما الشعور بالخجل من أبيه، ذلك الشعور الذي لم تكن له يد بدفعه في حضورنا.

وقال العجوز وهو يتعقبني في الحجرة وأنا أتم ارتداء ثيابي، ويقلب بين أصابعه صندوق السعوط الفضي الذي منحته المرحومة جدتي إياه، وكان تقليبه له بحركة تنم عن الاحترام والتبجيل:

– أنني ما أن سمعت من ابني أنك أديت الامتحان ببراعة فائقة، وأنا أعلم أن براعتك شيء معلوم لدى الجميع، حتى أتيت على الفور لأقدم التهنئة يا ولدي العزيز، وكيف لا؟! لقد حملتك على كتفي، والله شهيد على أنني أحب آلك كما أحب أهلي، وألح ايلنكا علي كي يأتي لزيارتك، لأنه يحبك كثيراً.

وفي هذه الأثناء كان ايلنكا قد جلس صامتاً بجوار النافذة مستغرقاً فيما يظهر في تأمل قبعتي المثلثة الأركان، وهو يغمغم لنفسه شيئاً بنبرة

تدل على السخط والغضب، واستطرد العجوز في كلامه:

– والآن، أردت أن أسألك أيضاً هل أدى ابني ايلنكا الامتحان أداء مرضياً؟ أنه يقول لي أنه سيكون في عين الكلية التي ستدخلها أنت، وهكذا سيتاح لك أن ترقب سلوكه وتسدي إليه النصح عند اللزوم.

فأجبت وأنا أرمق ايلنكا:

– لقد أبلى بلاء حسنا...

وشعر ايلنكا بوقع نظرتي فأحمر وجهه وتوقف عن الغمغمة.

ثم سأل العجوز وهو يبتسم ابتسامة تدل على الحياء وكأنه كان يخشاني، وكانت رائحة التبغ والخمر لا تنقطع عن مداعبة أنفي لأنه كان يتعقبني عن كثب طول الوقت:

– وهل تسمح له أن يقضي هذا النهار معك؟

فشعرت بالحرج لأنه وضعني في موقف غير كريم بإزاء ابنه، وفي الوقت نفسه كان يصرف اهتمامي عن مسألة كانت غاية في الأهمية في نظري وقتئذ وهي التوفيق في ارتداء ثيابي بصورة أنيقة، فضلا عن رائحة الكحول التي كانت تضايقني منه، فقلت له بكل برود:

– أني للأسف سوف لا أحظى بهذا السرور لأني سأقضي اليوم كله خارج البيت.

وصاح ايلنكا باسماً من غير أن ينظر نحوي:

– ولكنك كنت تنوي التوجه لزيارة شقيقتك يا أبي، وبعد ذلك ستكون لدي أعمال هامة.

وأردت أن أخفف وقع خيبة الأمل التي سببها رفضي فبادرت أقول لهما أني سوف لا أكون في البيت لأني سأتوجه لزيارة الأمير ايفان ايفانتش والأميرة كورنكوفا، وايفين الذي يشغل منصباً رفيعاً، ثم قد أتناول الغداء مع الأميرة نخليودوفا.

وظننت أنهما حين يعلمان مبلغ خطورة القوم الذين سأزورهم سوف يعذرانني، ولما تأهبا للانصراف دعوت ايلنكا أن يأتي لزيارتي في فرصة أخرى، بيد أنه ابتسم ابتسامة مغتصبة وغمغم بكلام لم أسمعه، وكان واضحاً جداً أن قدمه سوف لا تجتاز عتبة بيتي مرة أخرى.

وبعد انصرافهما شرعت في أداء ما في قائمة الزيارات، وكنت قد دعوت فولوديا في ذلك الصباح للذهاب معي حتى لا أشع بالوحشة والخجل وأنا بمفردي، بيد أنه رفض متعللاً بأن مظهرنا معا في العربة سيكون عاطفياً مضحكاً عندما يرى الناس أخوين متحابين يركبان معا عربة صغيرة لطيفة.

آل فالاخين

ومضيت وحدي. وأول بيت من البيوت التي سأزورها في طريقي هو بيت آل فالاخين. ولم أكن رأيت ابنتهم سونشكا منذ ثلاث سنوات. وكنت في ذلك العهد أحبها حباً شديداً. ولم تزل ذاكراها تلم بخاطري

فيلمس أوتار قلبي الحنين لذلك الحب الصبياني. وكثيراً ما ذرفت الدموع في تلك المناسبات حتى كان يخيل إلي أنني لم أزل أحبها. وبعد دقائق معدودات ينقشع الحنين ولا يعادوني إلا بعد زمن طويل.

وكنت أعلم أن سونشكا رحلت إلى الخارج مع أمها ظلت هناك سنتين. وقيل أن حادثاً وقع لهما في العربة فتشوه وجه الفتاة بجروح عنيفة من الزجاج المتطاير حتى قيل أنها فقدت ملامحها إلى حد كبير.

وفي طريقي إلى بيت الأسرة تذكرت سونشكا كما كانت في الأيام الخوالي وفكرت في شكلها كما أصبح الآن. فتخيلتها وقد أمست مفرطة الطول بديعة القوام، أكسبتها الرحلة الطويلة إلى الخارج جداً وسمتا وجاذبية. وأبى خيالي أن يصورها لي وقد شوهت وجهها الندوب. بل على العكس تذكرت قصة العاشق الوفي الذي ظل مقيماً على حب محبوبته بعد أن شوه داء الجدري محياها. فملت إلى الاعتقاد بأني لم أزل أحبها، حتى تكون لي مزية ذلك الوفاء النادر في التعلق بها رغم ندوب وجهها.

والواقع أنني عندما وقفت بعربتي أمام باب آل فالاخين لم أكن عاشقاً، ولكني كنت قد بعثت صبابتي الغابرة من مرقدها فأصبحت على أهبة الوقوع في الحب، بل وشديد الرغبة في ذلك. ولاسيما أن جميع صحابي من الطلاب لهم غرامياتهم الحافلة. فكيف أتخلف عن ركبهم في هذا المضمار وأقصر عن شأوهم؟

وكان آل فالاخين يعيشون في بيت صغير أنيق مشيد من الخشب يحيط به فناء. وفتح الباب بمجرد جذب حبل الجرس الذي كان بدعة حديثة في موسكو يومئذ يندر وجودها في البيوت. وكان الذي فتح الباب غلام صغير جداً أنيق الثياب. وأما أنه لم يفهم كلامي أو لم يشأ أن يخبرني بوجود الأسرة في البيت، لأنه تركني في الدهليز المظلم وأسرع يعدو إلى البهو وهو أشد ظلمة.

وبقيت وحدي برهة. وكان في الدهليز باب واحد مقفل غير الباب المفتوح المفضي إلى البهو. وأدهشتني تلك الظلمة ثم قلت لنفسي لعل هذه هي عادات من أطالوا الإقامة خارج البلاد!

وبعد فترة بلغت خمس دقائق فتح الغلام الباب وقادني إلى حجرة جلوس أنيقة الرياش وأن لم تكن فاخرة. ولم تلبث سونشكا أن دخلت على الأثر...

وكانت سونشكا في السابعة عشرة. فرأيتها قصيرة القامة نحيلة الجسم، وجهها مصفر لا يدل على العافية. ولم أجد في وجهها ندوبا ظاهرة. ولكن عينيها الكبيرتين الساحرتين وابتسامتها المشرقة الطروب كانت هي بعينها كما عرفتها وأحببتها في طفولتي. ولم أكن أتوقع أن أجدها على هذه الصورة إطلاقاً. ولذا لم أوفق في إظهار المشاعر التي أعددتها طول الطريق في أول وهلة.

وبسطت إلي يدها على الطريقة الإنجليزية التي كانت في موسكو

وقتئذ بدعة نادرة جداً مثل بدعة أجراس الأبواب. وهزت يدي بحرارة ودعتني للجلوس بجوارها على الأريكة التي جلست فوقها. ثم قالت لي وهي تحملق في وجهي بسرور واضح عبرت عنه لهجتها وكلماتها الصريحة.

– كم أنا سعيدة برؤيتك يا عزيزي نقولا...

ولاحظت أن قولها يا عزيزي نقولا كان ينم عن مودة لا عن إشراف وتعال. وأدهشني أنها كانت أبسط وأحلى وأكثر انطلاقا على السجية في حركاتها وأقوالها مما كانت قبل الرحلة إلى الخارج. وفطنت إلى ندبتين صغيرتين بالقرب من أنفها وعلى جبهتها. ولكن إشراق عينيها الرائعتين كان كعهدي به لم يتغير.

وقالت لي

– كم تغيرت يا نقولا! لقد أصبحت شاباً الآن! وكيف تراني؟

– كدت لا أعرفك!

ولكني أدركت على الفور أني كنت سأعرفها ولاشك على كل حال. وشعرت بانطلاق نفسي كما حدث لي وأنا طفل عندما راقصتها في الحفلة التي أقامتها جدتي. وسمعتها تسألني وهي تهز رأسها:

– هل تراني أصبحت قبيحة جداً إلى هذا الحد؟

فأسرعت أجيبها

– بالعكس. بل كبرت قليلاً. ولكنك أكثر...

فقاطعتني قائلة

– لا عليك! أتذكر رقصاتنا القديمة وألعابنا. أتذكر سان جيروم؟ يا لها من أيام ساحرة...

وأشرق وجهها بتلك الابتسامة العذبة التي وهبتها الطبيعة إياها. بل أن ابتسامتها الآن أعذب وأشد فتنة من الابتسامة التي ادخرتها ذاكرتي. وومضت عيناها كوميضها في الأيام الخوالي. فجزمت بأنني عدت إلى حبها.

وبمجرد أن قر قراري على ذلك وتأكدت منه، زايلني شعور السرور وخلو البال، وكأن حجاباً من الضباب أسدل بيننا فغطى شيئاً ما عينيها وابتسامتها. واستولى على الحياء لأمر ما، وانعقد لساني، وأحمر وجهي.

أما هي فاستطردت تقول وهي تتنهد رافعة حاجبيها قليلاً:

– لقد تغيرت الأيام تغيراً بيناً. أن كل شيء يبدو الآن أسوأ مما كان. ونحن أنفسنا أصبحنا أسوأ مما كنا. ألسنا كذلك يا نقولا؟

ولم أستطع أن أجيبها وحملقت فيها صامتاً. فاستطرت وهي تنظر

إلى احمرار وجهي المرتاع بشيء من الدهشة والاستطلاع:

– أين الآن كل من كنا نعرفهم من آل ايفين وآل كورنكوف؟ أتذكرهم؟ لقد كانت أياماً رائعة...

ولم أستطع جواباً أيضاً...

وأنقذني دخول السيدة فالاخينا بصفة مؤقتة. فنهضت وانحنيت واستعدت قدرتي على الكلام. وفي الوقت نفسه اعترى سونشكا تغير غريب بمجرد دخول أمها. فإذا كل ما كان باديا عليها من المرح والغبطة والمودة قد تلاشى فجأة. بل أن ابتسامتها نفسها تغيرت. وعلى الفور أصبحت تبدو أمام عيني كما تخيلتها، فهي فيما عدا طول القامة كانت صورة لشابة عائدة من إقامة طويلة خارج البلاد.

وخيل إلى أن هذا التغير ليس له مبرر. لأن أمها كانت تبتسم بكل رقة وظرف. وحركاتها جميعا كانت تنبئ عن رقتها المعروفة فيها من قديم. وقد جلست الأم في مقعد وثر كبير وأشارت أن أجلس بالقرب منها. وقالت لابنتها شيئاً باللغة الإنجليزية فغادرت سونشكا الحجرة على الفور. وأتاح لي هذا شيئاً من الراحة.

وسألتني فالاخينا عن أقاربي وأخي وأبي. ثم حدثتني عن أحزانها لفقد زوجها... وأخيراً أحست أنه لم يعد لديها ما تقوله لي فنظرت صامتة وكأنها تقول لي بلسان حالها:

– أن نهضت الآن يا فتى وانصرفت تكون قد أحسنت صنعاً.

ولكن شيئاً غريباً حدث لي، وكانت سونشكا قد عادت بأشغال التطريز وجلست في ركن الحجرة بحيث شعرت بوقع نظرتها على ظهري. وفيما كانت فالاخينا تحدثني عن فقد زوجها وخسارتها فيه تذكرت أنني أحب. وأن الأم ربما كانت فطنت إلى شيء من هذا، فاجتاحتني نوبة أخرى من الخجل العاتي. حتى أصبحت عاجزاً عن تحريك أي عضو من أعضائي بصورة طبيعية.

وكنت أعلم أنني لكي أنهض وأستأذن في الانصراف يجب أن أفكر أين أضع قدمي. وكيف أحرك رأسي وكيف أحرك يدي. وقصارى القول أني شعرت بما شعرت به بالأمس بعد شرب الشمبانيا. إذ أحسستبعجزي عن السيطرة على سلوكي وحركات أعضاء جسمي. فلم استطع النهوض.

ولعل فالاخينا دهشت عندما رأت احتقان وجهي وجمودي التام في مكاني. ولكني قررت أن الجلوس بهذه البلاهة أفضل على كل حال من النهوض بصورة سخيفة والاستئذان بحركات مضحكة!

وجلست بهذا الشكل فترة طويلة على أمل أن تخلصني صدفة غير منتظرة من ورطتي هذه. وسنحت هذه الفرصة على شكل شاب لا يدل منظره على شيء ذي بال دخل الحجرة دخول آلاف البيت وانحني لي بأدب. فنهضت فالاخينا واعتذرت لي بأنها يجب أن تتحدث إلى ويكل أعمالها. ونظرت إلي بدهشة نظرة من تقول لي:

– أن كنت تنوي البقاء في مجلسك هكذا فأنت حر... فسوف لا أطردك عنوة.

فبذلت جهداً كبيراً. ولكني لم أتمكن من الانحناء كما ينبغي. وعندما سلكت طريقي إلى الباب مشيعاً بنظرات الأم والابنة ارتطمت بمقعد لم يكن في طريقي المفروض إطلاقاً، ولكني ارتطمت به لأني انحرفت عن الطريق تفادياً من التعثر بالبساط الذي تحت قدمي.

وما أن خرجت إلى الهواء الطلق حتى اختفى هذا الدوار وشرعت أفكر بهدوء في مسألة حبي لسونشكا. وسلوكها أمام أمها الذي أدهشني كثيراً. ولما أفضيت فيما بعد بملاحظاتي تلك إلى أبي وأديت دهشتي من سوء العلاقات بين الابنة والأم قال:

– أنها في الواقع تسئ معاملة ابنتها ببخلها. مع أنها كانت فيما مضى امرأة لطيفة للغاية. ولا أدري ماذا غيرها هكذا.

أرأيت سكرتيرها؟ ما هذه البدعة التي تجعل سيدة روسية تتخذ سكرتيرا؟

– نعم رأيته.

– أهو وسيم على الأقل!

– كلا على الإطلاق!

– هذا شيء غير مفهوم!

وهز أبي كتفيه في غضب وسعل في عصبية وغادر الحجرة..

وقلت لنفسي وأنا أركب عربتي "أني أصبحت عاشقاً مثل غيري..".

آل كورنكوف

وكان ثاني بيت من البيوت التي أزورها في طريقي هو بيت آل كورنكوف. وهم يقيمون في الطابق الأول من بيت كبير. وسلم البيت فخم جداً ونظيف، ومفروش ببساط مثبت بقضبان من النحاس، ولكن لا تزينه الأزهار أو المرايا. وكان البهو الذي مررت فوق أرضه اللامعة البراقة كي أصل إلى حجرة الجلوس نظيفاً بارداً، وأثاثه مرتب بأناقة، وكل شيء فيه يبدو لامعاً متيناً وأن لم يكن جديداً على الإطلاق. ولكن لا وجود للصور أو الستائر أو أية حلية من أي نوع.

وفي حجرة الجلوس وجدت بعضا من أميرات تلك الأسرة. وكن جالسات في احتشام وأناقة وتراخ. ولكن كان واضحاً جداً أنهن لا يجلسن هكذا حينما لا يكون حضور الضيوف أمراً مرتقباً.

وقالت لي كبراهن وهي تدنو وتجلس بالقرب مني:

– ستحضر والدتي في الحال.

ثم قضت هذه الأميرة ربع ساعة تجاذبني أطراف حديث هين. وكانت لها في ذلك الأسلوب من الحديث براعة فائقة، حتى أنه لم يعتوره الفتور لحظة واحدة. بيد أنه كان واضحاً غاية الوضوح أنها كانت تتعمد تسليتي. ولذا لم ترق لي!

وقد قالت لي فيما قالته أن شقيقتها ستيفان الذي كن يلقبنه "أتين" –وكان قد دخل المدرسة الحربية– تخرج أخيراً وعين ضابطاً. وعندما تحدثت عن شقيقتها، ولاسيما عندما ذكرت أنه دخل فرقة الفرسان مخالفاً بذلك أرادة أمه، جعلت على محياها نظرة ارتياع. وعلى الفور وضعت الأميرات الأخريات الجالسات في صمت مثل ذلك الارتياع على وجوههن.

وكذلك عندما تحدثت عن وفاة جدتها اتخذت سحنة تدل على الأسى الشديد، وفي الحال فعلت الأميرات الصغريات مثلما فعلت. وأيضاً عندما تذكرت هي حادثاً مضحكاً من حوادث طفولتنا مع سان جيروم، ضحكت حتى أظهرت أسنانها المصفرة، فضحكت الأميرات الصغيرات وأبدين أسنانهن المصفرة!

ودخلت الأميرة كورنكوفا. وكان قد اعتراها شيء هين من النحول، بيد أنها كانت كالعهد بها ضئيلة ذات عينين قلقتين لا تستقران، ومن عادتها أن تنظر إلى شخص آخر وهي تكلمك أنت.

وتناولت الأميرة يدي فرفعت يدها إلى شفتي لأقبلها، وهو ما لم

أكن أفعله لولا أنها صافحتني، لاعتقادي أن تقبيل اليد ليس ضربة لازب. وقالت تحدثني بطلاقتها المعهودة لي وهي تنظر في الوقت نفسه إلى بناتها:

– كم أنا سعيدة أن أراك! وكم أصبحت تشبه أمك رحمة الله عليها! أليس يشبهها جداً يا ليزا؟

فأكدت ليزا أني أشبه أمي جداً. مع أني كنت أعرف يقيناً أنه ليس بيني وبين أمي أدنى شبه... واستطردت هي:

– ويا لله كم نموت! أن ابني أتين كما تعلم هو ابن عمك الثالث. وهو الآن ضابط. هل علمت هذا؟ ولكنه لا يعجبني من بعض الوجوه، فلديه حرية أكثر مما ينبغي، مع أنكم أيها الشبان في حاجة شديدة إلى الرقابة الحازمة. كلا، لا تغضب من عمتك العجوز لأنها تقول لك الحق الصراح. لقد ربيت أتين تربية صارمة. وأظن أن هذا هو ما كان ينبغي أن يكون... آه! ها قد اكتشفت أخيراً قرابتك لنا على وجه الدقة! الأمير ايفان ايفانتش خالي، وهو أيضاً عم أمك، وعلى هذا أكون أنا وأمك أولاد عمومة. هذا وجه القرابة تماماً. والآن خبرني: هل توجهت لزيارة خالي الأمير ايفان ايفانتش؟

– لم أذهب إليه بعد. ولكني أنوي أن أزوره اليوم.

– ويحك! إن هذا كان ينبغي أن يكون أول ما تقوم به من زيارتك.

فأنت تعلم ولا ريب أن الأمير ايفان بمثابة أبيك. وليس له أولاد. فأنت وأولادي ورثته الوحيدون. وهو غني جداً. ويجب أن توقره وتجله للغاية بالنظر إلى سنه المتقدمة ومكانته في المجتمع وثروته وغير ذلك. وأنا أعرف فيكم يا شبان الجيل الحاضر أنكم لا تقيمون وزناً كبيراً لأواصر القرابة ولا تحبون المتقدمين في السن. ولكن أسمع كلام عمتك العجوز. فأنا أحبك كثيراً. وكنت أحب أمك حباً شديداً، وكذلك جدتك. وكنت احترمها كثيراً جداً جداً. يجب أن تذهب بغير تخلف أو إبطاء لزيارة عمك الأمير ايفان.

– أني يقينا سأذهب لزيارته بلا أبطاء.

ولما كانت الزيارة قد بلغت أقصى مداها في نظري، نهضت وأبديت رغبة بالإشارة تدل على الانصراف. ولكنها احتجزتني صائحة

– كلا. انتظر دقيقة. أين أبوك يا ليزا؟ ناديه هنا. فسوف يسره كثيراً أن يراك يا عزيزي الصغير.

وبعد دقيقتين دخل علينا الأمير ميخايلو. وكان رجلاً قصيراً بديناً بادي الإهمال في زيه غير حليق. وعلى غبائه مسحة من عدم الاكتراث. ولم يظهر عليه السرور لرؤيتي على الإطلاق. وهو على الأقل لم يقل لي ما يفهم منه ذلك السرور. ولكن الأميرة زوجته –التي كان جلياً غاية الجلاء خوفه الشديد منها– قالت له:

– أن المحروس (وكان واضحاً أنها نسيت اسمي) يشبه أمه كثيراً.

أليس كذلك؟

وأومأت إليه بعينيها إيماءة لابد أن الأمير أدرك مغزاها لأنه تقدم نحوي، ثم قدم لي قي استياء وعلى مضض خده غير الحليق فاضطررت لتقبيله. وعندئذ قالت له الأميرة فجأة بلهجة تدل على الغضب، هي ولاشك اللهجة التي تستخدمها غالباً مع آل بيتها:

– أنك لم ترتد ثيابك بعد. مع أنك يجب أن تخرج حالاً. كأني بك تريد أن تجعل الناس يسيئون بك الظن مرة أخرى، فيعودوا للغضب منك.

فقال الأمير ميخايلو بسرعة

– حالا يا عزيزتي حالاً!

وخرج من الحجرة. فانحنيت وخرجت أنا أيضاً.

وهكذا سمعت لأول مرة في حياتي أني من بين ورثة الأمير ايفان ايفانتش وكان هذا النبأ مفاجأة غير سارة لي.

آل ايفين

وكان البيت التالي في طريقي هو بيت آل ايفين. وهو بيت كبير جداً جميل البنيان. وتقدمت في شيء من التوتر العصبي نحو المدخل. فإذا بواب واقف وفي يده عصا، فسألته:

– هل الأسرة في البيت؟

– من الذي ترغب في مقابلته يا سيدي؟ أن ابن الجنرال في البيت.

– والجنرال نفسه؟

– سأرى يا سيدي أن كان في البيت. من السيد؟

ورن جرس الباب بنفسه فظهر حاجب عند السلم. واعتراني توتر عصبي جائح حتى أنني قلت للحاجب ألا يستأذن لي على الجنرال، لأني أريد أن أقابل ابن الجنرال أولاً. ولما ارتقيت السلم الفخم الضخم خيل إلي أنني أصبحت ضئيل الحجم جداً بالمعنى المادي للضآلة. وكنت قد شعرت بذلك عندما وقفت زحافتي الصغيرة عند البوابة الضخمة. فقد خيل لي أن الزحافة والسائق والحصان قد انكمش حجمها جميعا.

وكان ابن الجنرال راقداً مستغرقاً في النوم فوق أريكة وأمامه كتاب مفتوح عندما دخلت عليه الحجرة. وتبعني مؤدبه الهرفروست الذي لم يزل مقيماً بالبيت للإشراف على تعليمه ودخل الحجرة بخطواته المنتظمة وأيقظ تلميذه.

ولم يظهر ايفين ابتهاجاً خاصاً لمرآي. ولاحظت أنه كان ينظر إلى حاجبي وهو يتكلم. ومع أنه كان مهذباً جداً، إلا أنه بدا لي أنه يتكلف تسليتي بالكلام كما فعلت الأميرة بالضبط. وأنه في حقيقة الأمر لا يشعر بأي ميل أو انجذاب نحوي وليست به حاجة إلى توطيد معرفته بي. ولعل

له دائرة خاصة من الأصدقاء من غير طرازي. وقد خطر لي هذا كله لأنه كان يحملق في حاجبي على الخصوص. وكان سلوكه نحوي شبيها (وأن كان الاعتراف بهذا مؤلماً لي جداً) بسلوكي نحو ايلنكا. فبدأت أشعر بالضيق والاستياء وأسئ الظن بكل نظرة من نظرات ايفين. وعندما التقت عيناه بعيني فروست ترجمت نظرتهما بأنه يسأله:

– ولكن لماذا جاء هذا الفتى لزيارتنا؟

وبعد أن تحدثنا برهة قصيرة قال ايفين

– إن والدي ووالدتي في البيت. ألا تحب أن أصحبك لمقابلتهما؟

–بكل سرور.

– سأرتدي ثيابي على الفور أذن.

ودخل حجرة مجاورة لتبديل ثيابه مع أنه كان مرتدياً ثياباً لائقة جداً في نظري: بذلة جديدة وصدارا أبيض اللون. وبعد دقائق معدودات عاد في زيه الرسمي العسكري، ونزل معي إلى الطابق الأسفل.

وكانت حجرات الاستقبال التي اخترقناها فسيحة للغاية ومؤثثة بأفخم الأثاث. ولفتت نظري تماثيل المرمر والطنافس المذهبة وستائر الحرير الموصلي والمرايا الضخمة. وجلسنا في صالون صغير من داخل قاعة.

ودخلت السيدة ايفينا من باب آخر على الفور واستقبلتني بمودة بالغة استقبال ذوي القربى وأجلستني بجوارها وسألت باهتمام عن جميع أفراد أسرتنا. ولما ملأت منها نظري (ولم أكن رأيتها من قبل إلا لماما) راقت لي كثيراً، فهي طويلة القامة، تبدو على الدوام رازحة تحت إعياء يستنفد قواها.

وكانت نظرتها حزينة بيد أنها تفيض رقة وحناناً. وكانت عيناها كبيرتين، جذابتين. وكانت حركاتها جميعا تنم عن التعب. فتبدو في جلستها كأنما هي منحنية إلى الأمام. وفي صوتها المتداعي ولثغتها ما يحببها إلى النفس. وأيقنت أنها لم تكن تحدثني لتسليتي فقط. لأنها كانت تتلقى أخبار أسرتي باهتمام وشرود كأنها تتذكر أياماً خالية كانت أسعد من هذه الأيام.

وخرج ابنها لشأن له من الحجرة. فظلت ترمقني صامتة مدة دقيقتين. وفجأة بدأت تبكي. وكنت جالساً أمامها فجمدت في مكاني ولم يهدني عقلي إلى كلمة أقولها. واستمرت هي تنتحب ولا تنظر نحوي إطلاقاً. وشعرت في البداية بالأسف الشديد لها. ثم قلت في نفسي:

-ألا ينبغي أن أسرى عنها؟ ولكن كيف؟

وشعرت بالحرج الشديد والاضطراب لأنها وضعتني في هذا المأزق. هل منظري هو الذي جعلها تبكي؟ أمنظري مثير للرثاء إلى هذا الحد؟ أم عساها تفعل هذا عمداً لترى كيف يكون تصرفي؟ ليس من

اللائق أن أنهض الآن واستأذن في الانصراف. فقد يكون معني هذا أنني أفر من دموعها.

وتململت في مقعدي كي أذكرها بوجودي فنظرت إلي وحاولت أن تبتسم قائلة:

– ما أحمقني! هناك أيام يبكي فيها الإنسان هكذا من غير سبب على الإطلاق.

وأخذت تفتش عن منديلها بجوارها على الأريكة. وفجأة انفجرت باكية أكثر من ذي قبل:

– آه يا عزيزي! ما أسخف أن أبكي هكذا! لقد كنت شديدة التعلق بوالدتك. كنا صديقتين حميمتين جداً و....

ووجدت منديلها فغطت به وجهها وأنشأت تبكي. وأصبح موقفي حرجاً مرة أخرى. واستمر الحال هكذا فترة من الزمن وأنا نهب للإشفاق عليها. فإن دموعها بدت لي صادقة. وخيل إلي أنها لا تبكي بالأكثر لذكرى أمي بل لشقاء عيشها. ولأنها عرفت أياما أسعد من أيامها الراهنة فيما مضى.

ولا أدري كيف كان سينتهي الموقف لو لم يدخل ايفين الصغير ليقول لها أن أباه ايفين الكبير يسأل عنها. فنهضت وهمت بالخروج وإذا ايفين بنفسه يدخل الحجرة. وكان قصيراً بديناً أشيب الشعر ذا حاجبين

كثين سوداوين، وشعر رأسه الأبيض الخالص البياض حليق مما أضفي عليه صرامة شديدة.

ونهضت وانحنيت له. بيد أن ايفين الذي كانت تزين سترته الخضراء ثلاثة نجوم لم يجب على تحيتي، وأكاد أقول لم يعرني التفاتا، حتى شعرت على الفور أني لست آدمياً، بل شيئاً تافهاً ليس أهلا للالتفات، من قبيل الكراسي أو النوافذ أو ما هو بهذه الدرجة من الهوان بين أصناف البشر. وقال لزوجته بالفرنسية في حزم:

– أنك لم تكتبي إلى الكونتس بعد يا عزيزتي

وردت مدام ايفينا على تحيتي بهزة من رأسها تحمل طابع الكبرياء فجأة، وهي تنظر إلى حاجبي كما كان يفعل ابنها. وانحنيت مرة أخرى لها ولزوجها. فوقعت تحيتي على وجدانه وقع فتح نافذة أو إغلاقها! بيد أن ايفين الصغير صحبني حتى الباب وأخبرني في الطريق أنه سيحول إلى جامعة بطرسبرج لأن أباه عين في وظيفة هناك. وذكر لي منصباً خطيراً جداً من مناصب الدولة.

وقلت لنفسي وأنا أجلس في زحافتي

– سواء رضي أبي أم سخط لن تطأ قدمي أرض هذا البيت مرة أخرى. فهذه البكاءة تنتحب عندما تراني ونحن وحدنا ثم تنظر إلى كأني حشرة تافهة حين يدخل زوجها. وهذا الخنزير ايفين لا ينحني لي... سأريه!

أما كيف سأريه، فذلك ما لم يكن لي به علم. إلا أن هذه الكلمة هي التي خطرت ببالي وقتئذ. ولما علم أبي بسخطي ألح على في تكرار الزيارة قائلاً أن من مصلحتي توثيق معرفتي بهذا الرجل ذي الجاه. وأنه ليس من الطبيعي أن أطالب رجلاً في مكانة ايفين أن يعير غلاماً مثلي اهتماماً خاصاً. ولكني صممت على رأيي مدة طويلة من الزمن.

ايفان ايفانتش

وقلت للحوذي كوزما ونحن نسرع إلى بيت الأمير ايفان ايفانتش:

– والآن ها هي ذي آخر زيارة في هذا الحي.

وكنت بعد الزيارات السابقة قد اكتسبت شيئاً من الثقة بنفسي بالتمرين. ولذا وجدت نفسي أقدم على زيارة الأمير الجليل بهدوء نسبي. وإذا بي فجأة أتذكر كلمات الأميرة كورنكوفا عن ثروة الأمير الأبتر وأنني من أهم ورثته. وفي الوقت نفسه لمحت عند مدخل البيت عربتين كبيرتين في الانتظار، فاستولى على الخجل مرة أخرى.

وخيل إلي أن البواب المسن الذي فتح لي الباب، والحاجب الذي خلع عني معطفي، والسيدات الثلاث والسيدين الذين رأيتهم في قاعة الاستقبال، بل والأمير ايفان ايفانتش نفسه على وجه الخصوص (وكان جالساً على الأريكة في حلة لا تحمل أي علامة من علامات الزينة أو المنصب) كانوا ينظرون جميعا إلى باعتباري الوارث للأمير، ومن ثم كانت

نظرتهم تضمر لي سوء الظن.

وقبلني الأمير، إذا سمينا وضع شفتيه الناعمتين الجافتين الباردتين على وجنتي قبلة. وسألني في مودة ظاهرة عن أعمالي ومشروعات المستقبل. وضاحكني ثم سألني هل مازلت اكتب أشعاراً كالتي كتبتها منذ سنوات في عيد ميلاد جدتي. ثم دعاني للغداء على مائدته في ذلك النهار.

ولكن إفراطه في التلطف معي زاد من ظني أنه يبالغ في إكرامي كي يذود عن ذهني التفكير في مبلغ نفوره مني لأني وريثه. وكان من عادته أن يرفع شفته العليا نحو أنفه بعد أن يتم عبارته كأنه يريد إدخال تلك الشفة في منخريه. وهي عادة اكتسبتها من استخدامه للأسنان الصناعية التي تملأ فمه. ولكني وقتئذ ترجمتها بأنه يقول في نفسه.

– أيها الشاب لا حاجة بي إلى أن تذكرني بأنك وريثي. نعم أنا أعلم هذا!

وكنا في طفولتنا نناديي الأمير ايفان ايفانتش يا جدي. أما الآن وأنا أعلم أني وريثه فلا أستطيع أن أجري هذه الكلمة على لساني. وفي الوقت نفسه شعرت بالهوان لأني أناديه "يا صاحب السعادة" كأي زائر من الزوار الغرباء. ولذا اجتهدت طوال الحديث ألا أناديه على الإطلاق!

ولكني كنت أشد ما أكون ضيقا بالأميرة العجوز التي كانت أيضاً

من ورثة الأمير وتقيم معه في بيته. وكنت جالساً بجوارها على مائدة الغداء فخيل إلى أنها لم تكلمني طول الوقت لأنها تكره مني أن أكون من ورثة الأمير مثلها. وخيل إلى أيضاً أن الأمير لا يعير الجانب الذي جلس كلانا فيه التفاتا، لأننا وريثاه، ولذا فنحن سواء في نفوره منا.

في تلك الليلة قلت لصديقي ديمتري معلقاً على الموقف ولكي أخرج من ذهنه أية شبهة في طمعي في ثروة الأمير.

– أنك لا يمكن أن تصدق مدى استيائي وضيقي لقضاء ساعتين كاملتين في بيت الأمير اليوم. أنه رجل ظريف جداً وكان مهذباً للغاية معي. ولكني أظنهم كانوا ينظرون إلى نظرتهم إلى الأميرة التي تعيش في بيته وتعامله بتذلل بالغ. أنه شيخ لطيف للغاية. بل أنه رائع ودافق الحنان ورقيق في معاملته للجميع. ولهذا فمن المؤلم حقا أن نرى سوء معاملته لتلك الأميرة. أن النقود تفسد بدنسها جميع العلاقات!. ويخطر ببالي أنه من الأفضل توضيح موقفي للأمير بأن أخبره أني أجله بوصفه رجلاً. ولا أفكر إطلاقاً في ميراثه. ولذا أرجوه ألا يترك لي من ثروته أدنى نصيب. وأنني بغير ذلك الشرط لا أستطيع أن أدخل بيته أو أتردد على زيارته.

ولم يضحك ديمتري حين قلت له ذلك. بل على العكس استغرق في التفكير. وبعد سكون دام بضع دقائق قال لي:

– أسمع. أنك لست على صواب في ذلك. فأما أن لا تظن بالناس أنهم ينظرون إليك نظرتهم إلى تلك الأميرة. وأما أن تسير في فروضك

عن أفكارهم إلى نهاية الشوط، فتضرب بتلك الأفكار عرض الحائط وتتجاهلها مع علمك بسوئها وتتصرف غير ناظر إلى شيء من أفكارهم.

وكان صديقي على حق. ولم أدرك، إلا بعد ذلك بزمن طويل جداً، أنه من الخير إخفاء العواطف النبيلة في سريرة الإنسان. وعلمتني تجارب الحياة أن الأقوال النبيلة قلما تتمشى مع نبل الفعال. بدليل أنني بعد أن قلت لصديقي ديمتري بدقائق أن المال يفسد صلات الناس بعضهم ببعض، اقترضت منه على الفور خمسة وعشرين روبلا أعطنيها في الصباح قبل سفري إلى الريف، لأني اكتشفت نفاد ما معي من المال في شراء الصور والغلايين. وظلت مدينا له بالنقود وقتاً طويلاً حقا.

الفصل الثالث

صديقي ديمتري

ودار حديث بيني وبين ديمتري في العربة ونحن في طريقنا إلى كنتسيفو. لأنه كان قد ثناني عن زيارة والدته الأميرة نخليودوفا في الصباح. ثم جاء بعد الغداء ليأخذني كي أمضي طوال بعد الظهر، وأقضي الليل في البيت الريفي الذي تعيش فيه أسرته.

وبعد أن انفلتنا من المدينة، اختفت من تحت أنظارنا الشوارع القذرة، وتلاشت من أسماعنا ضجتها الهادرة، وتبدلنا بذلك كله المنظر الفسيح الطلق الذي تختال فيه الحقول والمروج. ولا تقطع علينا صمتها ألا أصوات العجلات على الأرض المتربة في خفوت. فإذا بنظرتي إلى الأمور تتغير، وإذا بي في جو من حريتي الجديدة– أسترد حواسي وصوابي من دوامة الأحداث التي أحاطت بي في اليومين الماضيين.

وكان ديمتري لطيفاً رقيقاً لا يبدى أية حركة من حركاته العصبية فلم يطرف بعينيه ولم يعبث برباط عنقه. وقدرت له أنع نسى تماماً حادثتي المخجلة مع كولبيكوف. ولم يكرهني بسببها أو يزدريني. وأخذنا نتحدث بصورة ودية عن أمور كثيرة دقيقة ليس من عادة الأصدقاء أن يتحدثوا عنها في جميع الأوقات. وحدثني ديمتري عن أسرته التي لم أتعرف عليها

بعد: حدثني عن أمه وخالته وشقيقته وعن الشخصية التي يكنى عنها فولودياودبكوف باسم ذات الشعر الأحمر ويعتبرونها معبودة صديقي.

وكان حديثه عن أمه مزيجاً من الثناء والفتور. وكأنما أراد أن يدفع عن نفسه تهمة برود العاطفة فتحدث بحماسة عن خالته، وبحنان عن أخته ولكن في اقتضاب شديد كأنما يخجله أن يحدثني عنها. أما ذات الشعر الأحمر فاسمها الحقيقي ليوبوف سير جيفنا، وهي عانس عجوز تعيش في بيت آل نخليودوف على أساس صلة قربة بعيدة تربطها بهم، فكان حديثه لي عنها بالغاً حد الحماسة والحرارة.

وأحمر وجهه احمراراً شديداً بيد أنه كان ينظر في عيني بثبات وهو يقول:

– أجل. أنها فتاة رائعة. وأن لم تعد في مقتبل العمر. بل لعلها عجوز. وليست جميلة على الإطلاق. ولكن ما أحمق الناس وأغباهم إذ يحبون الجمال! هذا شيء لا أستطيع أن أفهمه! أنه غباء مطلق. (وكان يتحدث وكأنه قد اكتشف حقيقة بارعة لم تظهر لأحد من قبل) أن لها روحاً ما أروعها! وقلباً ما أروعه! ومبادئ ما أروعها! وأني على يقين أنك لن تجد فتاة تضارعها في أيامنا هذه. لن تجد مثيلة لها على الإطلاق!

ولست أدري ما الذي جعل ديمتري يدرج في المدة الأخيرة على عادة الاعتقاد والمناداة بأن كل شيء طيب قد أصبح نادراً في أيامنا هذه. فهو مولع بتكرير هذه العبارة.

واستطرد ديمتري بهدوء بعد أن صب جام غضبه على من تسول لهم غباوتهم حب الجمال:

– ولكني خائف. نعم خائف. أخشى أنك ستستغرق زمناً حتى تفهمها وتتعلم كيف تعرفها على وجهها الصحيح. فهي متواضعة، بل ومنطوية. وليست مولعة بعرض محاسنها ومزاياها السامية الرائعة! أن والدتي مثلا وهي كما سترى ذات فطنة وذكاء ثاقب، قد عرفت ليوبوف سير جيفنا عدة سنوات. ومع ذلك لم يتسن لها ولن يتسنى لها أن تفهمها حق الفهم. ففي الليلة الماضية مثلا كنت في حالة نفسية سيئة كما لاحظت أنت. وسأخبرك لماذا، فأول أمس رغبت إلى ليوبوف سير جيفنا أن أظهر معها إلى ايفان ياكوفلفتش. الذي يقال أنه مخبول– ولاشك أنك سمعت به– ولكنه في الواقع رجل ممتاز. وليوبوف سير جيفنا متدينة جداً، وتفهم ايفان ياكوفلفتش تمام الفهم. وكثيراً ما ذهبت لزيارته، والحدث إليه، ثم تعطيه نقوداً ليفرقها على الفقراء. وهي نقوم من كسبها الخاص لأنها كما سترى امرأة رائعة. وذهبت معها إلى ايفان ياكوفلفتش وحمدت لها بمزيد من الامتنان أنها حملتني على زيارة ذلك الرجل الممتاز. ولكن والدتي لم تستطيع أن تهضم هذا أو تفهمه ورأت فيه تعلقاً بالخرافات. وهذا هو السبب في أنني في الليلة الماضية تشاحنت مع أمي لأول مرة في حياتي. وكانت مشاحنة حامية الوطيس جداً.

وهز رقبته وهو يمطها إلى الأمام كأنما يستعد بمخيلته ما شعر به

من العناد والأسف معا وقت المشاحنة. وسألته لكي أنحيه عن هذا الخاطر الأليم.

– ولكن ما هي مشروعاتك بالنسبة لها؟ هل فاتحتها في مستقبل حبك وصداقتك وكيف يجب أن تنتهي بينكما الأمور؟

فسألني وقد أحمر وجهه مرة أخرى، وقد تحول لينظر في عيني بثبات:

– أتعني هل أنوي أو أفكر في الزواج منها؟

– أننا كبرنا، ولا بأس من التفكير في المستقبل بصورة جدية. أن هذا بالضبط ما أردت أن أسألك عنه.

– ولم لا؟ أن هذا هو مرامي، وهو بعينه هدف كل رجل مستقيم. فالتفكير السليم يجعل كل رجل منا يفكر في السعادة والخير ما وسعه ذلك. وأنا واثق أنني سأكون سعيداً جداً معها لو أنها استجابت لرغبتي. بل سأكون عندئذ أسعد وأفضل مما لو تزوجت أجمل حسان العالم. وأنوى أن أمضي في ذلك متى تمت لي الحياة المستقبلية!

وكان الحديث قد استغرقنا فلم نلاحظ أننا وصلنا إلى كنتسيفو. وأن السماء قد تلبدت بالغيوم وهمت أن تمطر. وقرص الشمس الأحمر المتوهج قد مال عن كبد السماء إلى يميننا فوق أشجار حديقة كنتسيفوالعتيقة، وقد حجبت نصف القرص الأرجواني سحب خفيفة انطلقت منها حزم من الأشعة النارية أضفت على رؤوس الأشجار لمعاناً

وتوهجاً رائعين. وكان إشراق ذلك الجانب من السماء على نقيض اكفهرار الجانب الآخر منها بالسحب الداكنة.

وعلى مبعدة، من جهة اليمين، من وراء الأشجار العالية والشجيرات القصيرة، تراءت لنا سقوف البيوت الصيفية المتعددة الألوان، يعكس بعضها أرجوان الشمس الغاربة، ويعكس بعضها الآخر قتام السماء المكفهرة. وعن يسار كانت مياه البحيرة تبدو زرقاء باهرة تكتنفها مروج خضراء وتنعكس على صفحتها صور السحب المربدة. ومن وراء البحيرة تل صاعد يمتد إلى منتصف سفحه حقول مترامية داكنة الخضرة.

وكان الهواء ساكناً يوحي بالطلاقة من غير أن نلمس لتلك الطلاقة أثراً محسوساً. وضوء الشمس وخضرة الشجر كانت توحي جميعا بالطمأنينة والصفاء. فكأنما كل ورقة شجر، وكل عشبة خضراء، وكل نسمة هواء، تعيش حياتها الحرة المستقلة سعيدة في فرديتها وأن كانت تنتمي أكمل انتماء إلى المجموعة المترامية الآفاق.

وعلى الرغم من صداقتي العظيمة لديمتري واغتباطي بصراحته معي، لم أرد أن أعرف المزيد عن مشاعره ونواياه بإزاء ليوبوف سير جيفنا. إلا أني في الوقت نفسه أحسست أنه يجب أن يعرف موضوع حبي لسونشكا، لأن حبي لها تراءى لي من طبقة أعلى بكثير من حبه لصاحبته ذات الشعر الأحمر. بيد أني لسبب ما لم أستطع أن أحمل نفسي على مكاشفته فوراً بخواطري في تلك اللحظة، تلك الخواطر التي دارت حول روعة الإقامة في الريف عندما أتزوج من سونشكا. وكيف سيكون لي

أطفال صغار يحبون على الأرض وينادونني "بابا" "بابا". وكم سيسرني جداً عندما يحضر هو وزوجته ليوبوف سير جيفنا لزيارتنا في ثياب السفر.

وبدلا من هذا كله وجدت نفسي أشير نحو الشمس الجانحة إلى الغروب وأقول له:

– أنظر يا ديمتري! يا له من منظر ساحر!

ولم يقل ديمتري شيئاً. ولعله استاء لأن جوابي على اعترافه الصريح بعواطفه الكامنة، ذلك الاعتراف الذي لعله كلفه جهداً كبيراً، فكان نصيبه توجيه انتباهه إلى منظر طبيعي لم يكن يعني لديه شيئاً.

والحق أن الطبيعة كان تأثيرها على ديمتري مختلفاً جداً عن أسلوب تأثيرها في نفسي. فهي تؤثر فيه لا بسحر جمالها بل بطرافتها. ولذا فهو يحب الطبيعة بعقله أكثر مما يحبها بإحساسه.

وتجاهلت انشغاله الواضح بخواطره، وعدم اكتراثه لأي أمر أحدثه عنه، وقلت له:

– أني سعيد جداً. وأظنني حدثتك فيما مضى عن فتاة أغرمت بها وأنا طفل ثم تقطعت بيننا الأسباب حين ارتحلت إلى الخارج مع أمها. لقد رأيت هذه الفتاة اليوم...

واستطرت بحماسة بالغة

– وأنا الآن متيم بها هيمان!

ولم تمنعني أمارات عدم الاكتراث المرتسمة على وجهه من الإفضاء إليه بجميع تفاصيل حبي وجميع خططي عن المستقبل وكيف سأحتوي بين ذراعي لذاذات الدنيا كلها حين اقترن بها.

ومن عجب أنني ما أن وصفت له قوة عواطفي المشبوبة بدقة تامة حتى بدأت تلك العواطف تتضاءل في وجداني وتنكمش..!

وفاجأنا المطر بعد أن عرجنا على الطريق الجانبي المؤدي إلى الفيلا. ولكني لم أشعر به إلا حينما سقطت على أنفي ويدي نقط منه.

ثم هبطنا من العربة واجتزنا طريقاً قصيراً ضيقاً بين الأشجار إلى مدخل البيت حيث وجدنا أربع سيدات. وكانت اثنتان منهما تطرزان. والثالثة في يدها كتاب. أما الرابعة فأقبلت من بعيد ومعها كلب صغير. وقدمني ديمتري على الفور إلى أمه وأخته وخالته وليوبوف سير جيفنا. وقالت الأم، أو من حسبتها الأم.

– هيا نذهب إلى الشرفة لنتقي المطر. وقدمه إلينا هناك مرة أخرى بأناة حتى يتم التعارف كما ينبغي...

آل نخليودوف

ولأول وهلة جذبت انتباهي بينهن جميعا ليوبوف سير جيفنا التي كانت تحمل جرواً صغيراً وحذاؤها من الصوف المغزول ملفت للنظر لا يسمع له وقع وهي تصعد السلم مسرعة، وتوقفت مرتين في طريقها لتنظر إلى نظرة ثاقبة، ثم تقبل جروها الصغير!

ويمكن أن يقال عنها أي وصف سوى أنها جميلة، فشعرها الأحمر خفيف قصير، وقد صففته في جانب واحد من رأسها فزاد ذلك في المباعدة بينها وبين الجمال، وعلى شدة اجتهادي في إرضاء صديقي لم أستطع أن أكتشف لمحة واحدة جميلة فيها، فحتى عيناها البنيتان لا تشفع طيبتهما في صغر حجمهما وبلادة نظرتهما، ويداها ليستا كبيرتين ولا قبيحتين، بيد أنهما حمراوان خشنتان.

ولما تبعت مجموعة السيدات إلى الشرفة قالت لي كل واحدة منهن بضع كلمات قبل أن تنهمك في عملها، ما عدا فارنكا شقيقة ديمتري التي رمقتني في اهتمام بعينيها الواسعتين الرماديتين، فإنها لم تتكلم بل فتحت كتابها وأخذت تقرأ فيه بصوت مرتفع والكتاب على ركبتيها وسبابتها تتابع بها السطور.

والأميرة ماريا ايفانوفنانخليودوفا سيدة طويلة القامة مهيبة الطلعة في نحو الأربعين، وإن كان الشيب الذي دب إلى شعرها حثيثاً يوحي بأكثر من سنها الحقيقية، إلا أن وجهها الصبيح الرقيق كان خالياً من الغضون تماماً، وإشراق عينيها الرماديتين الواسعتين المتوهجتين كان يضفي عليها مسحة من الشباب أقل من سنها الحقيقية.

ولها شفتان نحيلتان جداً توحيان بالصرامة، وأنف مستقيم يميل إلى اليمين قليلا، ويداها الشبيهتان بأيدي الرجال لا زينهما الخواتم، وكانت ترتدي ثوبا أزرق قاتماً بسيط الطراز يناسبها ويبرز أناقتها، وكانت ذات

أنفة واضحة، تجلس معتدلة وتحيك ثوباً لها.

وأول ما دخلنا الشرفة تناولت يدي وقربتني منها كأنها تريد أن تنظر إلى عن قرب، ثم حملقت في بنظرتها الهادئة الصريحة التي تشبه نظرة ولدها، وكانت قد عرفتني جيداً من روايات ديمتري عني، ولذا دعتني لقضاء ذلك اليوم كي تزيد معرفتها بي.

وبعد أن أعربت لي عن ترحيبها قالت:

– أفعل ما يحلو لك ولا تجعل بالك إلينا إطلاقاً، ونحن أيضاً سوف لا نجعل بالنا إليكما، تنزها أو أقرأ أو استمعا أو ناما، ما حلا لكما فافعلاه.

أما صوفيا ايفانوفنا فعانس عجوز إلى حد ما، لأنها أصغر قليلاً في السن من شقيقتها الأميرة وأن كانت تبدو أسن منها كثيراً، وكانت ذات بنية قوية توحي بالصلابة، تلك الصلابة التي لا نلفاها ألا لدى العوانس القصيرات البدينات المسنات اللواتي يرتدين المشدات! وكأنما صعد دمها كله إلى نصفها الأعلى فهي مهددة بالانفجار أو الاختناق في أية لحظة، وكفاها الصغيران السمينان لا يكادان يلتقيان لشدة بروز واجهتها الأمامية وضغط المشد على جانبيها!

وكان الشبه بين الشقيقتين عظيماً بالرغم من أن ماريا ايفانوفنا سوداء الشعر، وصوفيا ايفانوفنا شقراء ذات عينين زرقاوين هادئتين،

فللشقيقتين طراز واحد من السحنة والأنف والشفتين، وأن كانت شفتا صوفيا العانس أغلظ شيئاً ما من شفتي الأميرة، وتجنحان إلى اليمين عندما تبتسم، أما أختها الأميرة فينحرف فمها إلى اليسار عند الابتسام.

وكان واضحاً أن صوفيا تبذل جهداً عظيماً للاحتفاظ ببقية شبابها، كما يدل على ذلك هندامها وتصفيف شعرها وصبغته.

وكانت نظراتها وحركاتها معي شديدة التعالي في البداية فضايقني ذلك، ولكني شعرت بارتياح عظيم نحو الأميرة، وربما كنت مخطئاً، ولعل بدانتها وشبهها من بعض الوجوه بالقيصرة كاترين العظمى هو الذي جعلني أظن بها التعالي، ولم أستعد طمأنينتي ألا عندما ثبتت عينيها في وجهي برهة طويلة ثم أدهشتني بقولها:

– أن أصدقاء أصدقائنا أصدقاؤنا.

فتغيرت فكرتي عنها تغيراً تاماً، ولاسيما لما رأيتها بعد هذه العبارة تزفر زفرة عميقة كأنها بذلت مجهوداً فائقاً في الكلام، فلا شك أن بدانتها وضغط المشد على جسمها يجعلان قدرتها على الكلام محدودة جداً، وهذا هو سبب ظني أنها متعالية، والواقع أن هذه الزفرة العميقة كانت سبباً في ضياع كل أثر للخوف منها في نفسي، وأصبحت راضياً عنها جداً، فاكتشفت في عينيها سحراً وفي صوتها رخامة، بل خيل إلى في تلك الفترة من يفاعتي أن أعطافها المستديرة لا تفتقر إلى الملاحة كل الافتقار!

أما ليوبوف سير جيفنا، فكنت أتوقع منها أن تكون أكثر طلاقة معي مما كانت، ولكني وجدتها تلتزم الصمت طويلاً، وكأنها تفكر، وهي تنظر إلى بإمعان، ما هي اللهجة المناسبة لتستعملها في خطابي، وبعد طول مراجعة فتحت فمها وقطعت الصمت بيننا بقولها:

– في أية كلية أنت؟

ولما أجبتها نظرت إلى طويلا بإمعان مرة أخرى قبل أن يستقر رأيها على توجيه كلمة أخرى إلى فيها شيء من المودة، وفطنت إلى ذلك الريب يساورها، فابتسمت كي أشجعها على الكلام بحرية وكأني أقول لها أني أهل لثقتها، فقالت:

– يقولون أن الاهتمام بالعلم أصبح قليلاً جداً بالجامعات في هذه الأيام... تعالى هنا يا سوزيت!

وسوزيت هو اسم جزوها الصغير!

وظلت ليوبوف سير جيفنا طوال تلك الأمسية تتكلم بعبارات متناثرة لا آصرة بينها ولا تنم عن شيء ذي بال، بيد أني كنت وطيد الثقة بصديقي ديمتري، الذي ظل طوال السهرة ينظر بقلق إليها تارة وإلى تارة أخرى، وكأن نظرته تسألني بإلحاح:

–هيه؟ ما رأيك؟

ومع ذلك لم أستطع أن أكتشف في ليوبوف سير جيفنا أية ميزة خاصة، إلا أنني لم أصارح بذلك حتى نفسي إكراماً لصديقي وثقة به.

والشخص الرابع في أسرة صديقي هو فارنكا شقيقة ديمتري، وهي فتاة أميل إلى البدانة في السادسة عشرة من عمرها، والسمة الوحيدة الجميلة فيها هي شعرها وعيناها ويداها، فأما عيناها فواسعتان رماديتان داكنتان تمتزج في نظرتيهما الفطنة والبهجة والحبور، وهما شبيهتان بعيني خالتها، وأما شعرها فكان غريزاً أشقر اللون، وأما يداها قبضتان جداً وجميلتان.

وبعد أن ـمت فارنكا القراءة قالت لي وهي تتناول ثوبا لتحيكه:

– أظنك شعرت بملل يا سيدي لأنك لم تسمع الرواية من بدايتها، أو لعلك قرأتها من قبل؟ أنها رواية بوب روي، للسير والتر سكوت؟

وكنت في ذلك العهد أتحرى أن تكون إجاباتي متسمة بالبراعة والأصالة مهما كان السؤال بسيطاً عادياً، أو كان السائل غريباً عني، وكنت أعتبر الإجابات الموجزة مثل نعم ولا تدل على غباء وبلاهة يخجلني أن أنطلق بها، ولذا نظرت قليلا إلى بنطلوني الجديد وأزرار سترتي اللامعة، ثم قلت:

– أني لم أقرأ من قبل بوب روي، ولكني سررت جداً بالاستماع إلى هذه الصفحات منها، لأني أفضل دائماً أن أقرأ الكتب من منتصفها

لا من بدايتها! ولهذا كانت لذتي مضاعفة، لأن القراءة من المنتصف تطلق العنان للخيال في تخمين الصورة التي كانت عليها البداية، ثم كيف تنتهي أخيراً هذه المقدمات المجهولة إلى ختام مجهول!

وابتسمت ابتسامة الرضا عن نفسي، فأخذت الأميرة والدة ديمتري تضحك ضحكة غريبة غير طبيعية، ثم اكتشف بعد ذلك أنها لا تضحك غير هذه الضحكة، وقالت لي:

– ربما كان هذا صحيحاً، وهي تنوى أن تبقى هنا طويلاً يا نقولا؟ لا يضيرك طبعا ألا أناديك بالسيد. متى تنوي السفر؟

– لا أدري، ربما غدا، أو ربما بقينا في موسكو فترة طويلة من الزمن.

قلت هذا مع أنني كنت أعلم وقتئذ علم اليقين أننا سنسافر إلى ضيعتنا في اليوم التالي، فقالت الأميرة وهي تنظر إلى بعيد:

– كنت أتمنى أن تبقي مدة أطول، فإن ديمتري يحبك كثيراً، والصداقة شيء رائع حقا في عمركما هذا.

وشعرت عندئذ أن الجميع ينظرن إلى في انتظار ما أتفوه به، مع أن فارنكا كانت تتظاهر بالانشغال في فحص تطريز خالتها، وأحسست أنهن يختبرنني، ولذا ينبغي أن أبلي بلاء حسناً ما وسعني ذلك، فقلت:

– هذا صحيح إلى حد ما، فصداقة ديمتري ناقعة لي، ولكن صداقتي لا يمكن أن تكون نافعة له من أية وجهة، فهو أفضل مني ألف مرة.

وكان ديمتري قد نهض لبعض شأنه فلم يسمع ما قلت، وألا لخشيت أن يكتشف نفاقي!

وضحكت الأميرة ضحكتها غير الطبيعية التي كانت ضحكتها الطبيعية، وقالت:

– أن من يسمعك تتكلم يجوز بأنك كامل الكمال كله

ثم خفضت صوتها لتقول لي همساً:

– ولكن ابني بارع في اكتشاف المواهب الخارقة، وهذا طبعاً من غير مقارنة بك... فقد اكتشف في خالتنا المسكينة هذه (وأومأت نحو ليوبوف سير جيفنا) التي أعرفها هي وسوزيت منذ عشرين عاماً، مواهب كثيرة لم تخطر لي ببال

ونظرت إلى ابنتها ثم حملقت في الفضاء مرة أخرى وقالت:

– مريهم أن يأتوني بكوب ماء يا فاريا، بل أجلسي أنت واستأنفي القراءة، وأذهب أنت أيها الصديق الصغير من هذا الباب، سر نحو خمس عشرة خطوة في الدهليز وصح: "أحضر يا بيوتر كوب ماء مثلج

لماريا ايفانوفنا" فليس لديك ما يشغلك!

فأدركت على الفور أنها تريد أن تتناقش مع بقية المجموعة في أمري ويتبادلن التعليقات وقلت في نفسي:

– لابد أنها ستقول عني أنها وجدتني شاباً ذكياً جداً، للغاية!

ولكني لم أتم الخمس عشرة خطوة حتى لحقت بي صوفيا ايفانوفنا بخطواتها السريعة الخفيفة وقالت لي:

– شكرًا لك يا عزيزي، أني ذاهبة إلى هناك بنفسي وسأخبرهم، لا تتعب نفسك!

الحب

وعملت فيما بعد أن صوفيا ايفانوفنا من أولئك النساء المسنات اللواتي ولدن مطبوعات على حياة الأسرة، ولكن الأقدار ضنت عليهن بتلك السعادة الطبيعية، فعولن عند التحقيق من ذلك القوات على توجيه كنوز حبهن الدفينة المتضخمة النامية في قلوبهن إلى مخلوق يصطفينه لأنفسهن، وكنز المحبة لدى العوانس اللواتي من هذا الطراز معين لا ينضب حقا مهما كانت المخلوقات اللواتي يصطفينها لذلك الحب كثيرة العدد، فلديهن على الدوام من الحب ما يكفي للإغداق على جميع ما حولهن، وعلى جميع ما يلقين في حياتهن من أهل الصلاح أو أهل الفساد من الناس.

وهناك في الواقع ثلاثة أنواع من الحب:

١. حب الجمال.

٢. حب التضحية.

٣. الحب الفعال أو الإيجابي.

ولست أتحدث عن حب شاب لفتاة، أو عن حب فتاة لشاب، فقد كان حظي في الحياة عاثراً فلم ألتق في عمري كله مرة واحدة بشرارة صدق تضئ ذلك النوع من الحب، ولم يتكشف لي حب الفتيان للفتيات ألا عن أكذوبة أو خدعة تتغلب فيها الشهوة أو العلاقات الجسدية أو شهوة المال أو حب الاستيلاء أو الرغبة في إطلاق اليد والاستهتار، فتطفي على شعور المحب نفسه حتى لا يستطيع أن يصل في أمر نفسه إلى قرار، وإنما مرادي بالكلام هنا من الحب حب البشرية عامة الذي يضيق أو يتسع نطاقه على حسب قوة الروح، فينصب على مخلوق واحد أو جملة مخلوقات، أو كثرة منها، ومن هذا القبيل حب الأم وحب الأب وحب الأخ والأولاد، وحب الزميل والأصدقاء، أو يبلغ ذلك الحب مداه فيكون حباً لبني الوطن أجمعين، أو يربى على ذلك إلى غاية الغايات فيكون حباً لبني البشر كافة

وحب الجمال أن هو إلا حب جمال الإحساس والشعور في ذاته وفي جميع الصور المعبرة عنه، وأولئك الذين يعرفون ذلك الحب لا

يكون موضوع حبهم حبيباً إلى أنفسهم إلا بمقدار ما يستثير ذلك الإحساس اللطيف في وجدانهم فيجدون في التعبير عن ذلك الإحساس لذة واغتباطاً

إن الذين يحبون المال لا يأبهون إلا قليلاً بتبادل العاطفة بينهم وبين محبوبيهم، لأن هذا التبادل ليس له أدنى أثر على جمال شعورهم بالحب ولذتهم التي يحسونها لقيام ذلك الشعور في سرائرهم

وهؤلاء قلما تتغير موضوعات حبهم، لأن هدفهم الأصيل إنما هو استبقاء جذوة شعورهم اللطيف بالمحبة متقدة لا تخمد، ولكي يستبقوا هذا الشعور في جوانحهم حياً، لا يكفون عن الكلام حول ذلك الحب والتعبير عن عاطفتهم تلك بأجمل الألفاظ، وعندهم على السواء أن يكون حديثهم موجهاً إلى آذان المحبوب أو إلى آذان أي إنسان ليس له أدنى اهتمام بذلك الحب

وقد لاحظت أن الناس في بلادنا الروسيا، ولاسيما من الطبقة العالية، يؤثرون التحدث عن حبهم، إن كانوا من عباد الجمال، باللغة الفرنسية، وذلك أمر من الأعاجيب، ولكنه يرجع في نظري إلى أن الكثيرين من أبناء تلك الطبقة ومن سيداتها على الخصوص يحبون أصدقاءهم وأزواجهم وبنيهم من قبيل ذلك الحب الجمالي، وأكاد أقطع بأنهن لو منعن من التكلم عن حبهن بالفرنسية لاختنقن ومتن كمداً!

أما الطراز الثاني من الحب وهو حب التضحية فهو ينصب على

تعذيب النفس في سبيل المحبوب، بصرف النظر عن إفادة المحبوب من هذه التضحية وهذا العذاب، أو ذهابهما هدراً من غير منفعة للمحبوب

وكأني بشعار ذلك الحب هو:

—ما من شيء يعز على الأقدام عليه لأقيم الدليل على ولائي لحبيبي هذا، أو لحبيبتي تلك!

ومن يحبون على هذه الشاكلة لا يؤمنون بتبادل العاطفة بينهم وبين محبوبيهم، لأن مما يزيد فضل التضحية وجمالها أن تكون في سبيل شخص لا يفهم شعور المضحي أو يكترث له!

وإنك لتراهم دائماً من ذوي الأبدان العليلة، لأن اصفرار الوجه ونحول الجسد مما يشهد بشدة الوجد وقلة الجلد، وأنهم مع ذلك لمن أهل الصبر والثبات لا يحولهم عن محبوبيهم شيء مهما اشتد، بل أنهم على استعداد دائماً للأقدام على الموت راضين كي يثبتوا للحبيب أو الحبيبة أنهم على العهد مقيمون وبجلال التضحية جديرون، لا يثنيهم ضني ولا ترهبهم المنون!

ولكن حذار! لا تظنهم يكترثون فتيلاً بحالة المحبوب، فليس يعينهم هل نام أم أرق، وهل جاع أم طعم، وهل ابتهج أم حزن واكتأب، فلن يفعلوا شيئاً في سبيل رفاهية المحبوب، في الوقت الذي يعرضون فيه صدورهم للرصاص التماساً لإقامة الدليل على حبهم!

إنهم في المقام الأول يلتمسون الفخ بذلك الحب، وهم في الوقت نفسه ذوو غيرة شديدة وشك لا يهدأ، والكثيرون منهم يتمنون للمحبوب المخاطر والمعاطب كي تسنح لهم الفرصة لإنقاذه معرضين أنفسهم للهلاك المحقق في ذلك السبيل، بل أن منهم من يتمنون للمحبوب السقوط في حماة الرذيلة وتلويث الشرف، كي يتسنى لهم فخر إصلاحه وإقالته من عثاره!

قد تكون مقيماً في الريف مع زوجتك التي تحبك حب التضحية، وقد تكون في خير حال وعافية، مشغولاً بما تحب من الأعمال والملاهي. وقد تكون زوجتك مريضة أو ضعيفة الصحة حتى أنها لا تستطيع النهوض بإدارة البيت، فتعهد بتلك الإدارة إلى الخدم، وتعهد بالأطفال إلى المراضع، فزوجتك التي تحبك حب التضحية لا تستطيع أن تقوم بشيء من ذلك كله، ولكنها تحبك، فلا تشعرك بأوجاعها وأمراضها حتى لا تؤلمك، وهي تشعر بالسأم والملل في هذا الريف، بيد أنها لا تعرب لك عن ذلك وتبالغ في كتمانه عنك لأنها على استعداد أن تحتمل الملالة طول عمرها كي لا تزعجك في معيشتك التي تستريح إليها، ومع ذلك فإن استمتاعك بحياتك في الريف يكاد يقتلها. ولكنك متى مرضت نسيت مرضها وأوجاعها وسهرت عليك غير مكترثة لتوسلاتك أن ترحم نفسها من السهر والجهد فليس بك إلا صداع عارض أو برد طارئ لا يستحق كل هذا العناء!

ومتى تحسنت صحتك في اليوم التالي ستجد أن طعامك الذي أمر

به الطبيب لم يعد، وأن الدواء لم يجهز، فهي لا تهتم بذلك، بل كل اهتمامها ف الجلوس بجوارك لتفيض عليك الحنان من نظراتها، وإذا تحركت فعلى أطراف أصابعها، وتزفر بين الحين والحين إظهاراً لأساها وشجنها لأنك مريض! وإذا أردت أن تنهض إلى دورة المياه توسلت إليك أن تبقى حيث أنت، وإذا أردت التحدث إلى صديق زائر توسلت إليك ألا تجهد نفسك بالكلام! وإذا أردت أن تنفرد بنفسك أبت عليك الوحدة، وجلست قبالتك في مقعد وتنهدت أسفاً وحسرة والشحوب يقطر من وجهها! وإذا حضر لك الطبيب ممرضة أبت عليها خدمتك ولاسيما في أمور التمريض القذرة كالتبرز وأصرت أن تقوم على ذلك بنفسها، مع أن هذا عمل الممرضة وعليه تؤجر

ومتى شفيت أتم الشفاء، وجدت زوجتك قد أضناها المجهود وزادت صحتها سوءاً وجعلت تكرر عليك ألف مرة أنها لا تهتم بالحياة وأنها ترحب بالموت ما دمت أنت قد شفيت! وهذا دليل على أنها تهوى العذاب في سبيلك أكثر مما تهواك! أنها تعشق التضحية أكثر مما تعشقك، فهي لا تحبك إلا لأنك موضوع لتضحيتها!

وأما النمط الثالث من الحب وهو الحب الفعال أو الإيجابي فيقوم على الرغبة في إرضاء المحبوب بجميع الوسائل، وتحقيق رغباته ونزواته، بل ورذائله وشهواته!

ومن يحبون على هذا المنوال يدوم حبهم مدى الحياة، لأنهم على

طول الزمن يشعرون بمتعة وراحة لتحقيق رغبات المحبوب أو المحبوبة، وقلما يعرب هؤلاء المحبون عن حبهم بالألفاظ، وإن فعلوا فلا تلمس في تعبيرهم الرضي عن أنفسهم، بل هم على العكس يتحدثون عن حبهم في خجل واستحياء لأنهم يخشون دائماً ألا يكون حبهم كما ينبغي، وبذلهم فيه كفاية وعناء

هؤلاء المحبون يحبون عيوب محبوبيهم لأن هذه العيوب أو الرذائل تتيح لهم الفرصة لإرضاء رغبات جديدة للمحبوب، وهم يطلبون دائماً تبادل العاطفة والهوى مع المحبوب، ولو كلفهم ذلك خداع أنفسهم في مبلغ إخلاص المحبوب لهم، إنهم يؤمنون بإخلاصه في حبه لهم ولو كذبت ذلك الظواهر والدلائل

وحتى إذا تقطعت سبل ذلك الإيمان بإخلاص المحبوب بالدليل الثابت الملموس، لم يؤثر ذلك في حبهم، وتمنوا السعادة للمحبوب، بل سعوا لتحقيق السعادة له على حساب أنفسهم مادياً ومعنوياً ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً...

وكانت صوفيا ايفانوفنا تحب ابن أختها ديمتري ذلك الحب الإيجابي، وتحب كذلك شقيقتها، وليوبوفسيرجيفنا، بل وتحبني لأن ديمتري يحبني، وكان هذا الحب الإيجابي الفعال هو الذي يشع من عينيها ومن كل كلمة من كلماتها وحركة من حركاتها

ولم أقدر صوفيا إيفانوفنا حق قدرها إلا بعد ذلك بزمن طويل،

ولكني حتى في تلك الفترة من العمر كنت أسأل نفسي في حيرة:

–إذا كان ديمتري يجتهد حقاً أن يفهم الحب بأسلوب يختلف تماماً عما ألفه الشبان، فلماذا انصرف عن تقدير كنز الحب الدافق العذب الذي يتمثل أمام عينيه في صوفيا ايفانونا، ليتجه بكليته إلى تلك الغامضة ليوبوفسيرجيفنا، ولا يزيد على أن يقول أن خالته أيضاً ذات مزايا لا بأس بها؟ إن هذا لدليل على أنه "لا كرامة لبني في وطنه!" ويزيد الأمر غموضاً أن ديمتري لم يعرف ليوبوف طويلاً، أما حب خالته فكان يغمره منذ ميلاده.

توثق المعرفة

وعندما عدت إلى الشرفة وجدتهن لا يتحدثن عني إطلاقاً كما خطر لي، ولم تكن فارنكاً تقرأ، بل أنها كانت قد وضعت كتابها جانباً واشتبكت في جدل عنيف مع ديمتري الذي جعل يتمشى جيئة وذهاباً، وهو يطرف بعينيه. وكان موضوع الجدل كما فهمت شخصاً اسمه ايفان ياكوفلفتش وما يتصل بشخصه من خرافات، ولكن عنف المناقشة أوحى إلي وأدخل في روعي أن وراءها عنصراً خافياً يجعل للمناقشة صلة وثيقة بالأسرة

ولزمت الأميرة الصمت هي وليوبوفسيرجيفنا، ولكنهما كانتا تصغيان لكل كلمة تقال، وتشعران بالرغبة أحياناً في الاشتراك في المناقشة، بيد أنهما كانتا تتمالكان نفسهما، وتتركان للطرفين المتناقشين الأعراب عن

وجهتي نظريهما، الأم تعتبر ابنتها فارنكا عن وجهة نظرها، وليوبوف يعبر ديمبري عن وجهة نظره

ولما دخلت الشرفة رمقتني فارنكا بنظرة تدل على منتهى عدم الاكتراث، مما دلني على استغراقها الكامل في الجدل، بحيث يستوي لديها أن أسمع ما تقول أو لا أسمعه، وكانت الأميرة– التي لا شك في أنها على رأي ابنتها– تبدي نفس الاستغراق في المناقشة بحيث صرفها عن الاكتراث لوجودي، أما ديمتري فزادت حدته في المناقشة بسبب حضوري، وظهر على ليوبوفسيرجيفنا الفزع لدخولي، وقالت غير موجهة كلامها إلى أحد بالذات:

–لقد صدق الأقدمون عندما قالوا: آه لو عرف الشباب وآه لو قدر المشيب!

ولكن هذا المثل الذي قابلته بالفرنسية لم يضع حداً المنقاش، ولكنه جعلني أعتقد أن ليوبوفسيرجيفنا وديمتري في الكفة الخاسرة، وشعرت بكثير من الحرج لحضور مثل ذلك الخلاف العائلي الدقيق، ولكنني مع ذلك شعرت بسرور عظيم لأن العلاقات الحقيقية في تلك الأسرة تكشفت لي، ولأن وجودي لا يمنع أفراد الأسرة من التحدث في خصوصياتهم بصراحة

وقد يحدث أن ترى أسرة سنوات طويلة، وتظل الأسرة محتفظة بقناع الاحتشام وحسن التظاهر فتبقى العلاقات الحقيقية بين أفرادها سراً

مغلقاً عليك، وقد لاحظت أن سمك القناع وزينته وزخرفته تتناسب دائماً مع اضطراب وخشونة العلاقات الخافية تحته من عينيك، ثم يأتي يوم على غير انتظار تثور فيه المناقشة حول موضوع في محيط الأسرة، وقد يبدو هذا الموضوع تافهاً، ينصب على سيدة شقراء أو حصان الزوج، وإذا بالمناقشة تحتدم من غير سبب ظاهر، حتى يصبح من المستحيل تصفية الخلاف الذي ثار مع الاحتفاظ بالقناع التقليدي في موضعه، فإذا القناع يسقط أو يتمزق، وإذا العلاقات الحقيقية بين أفراد الأسرة تتكشف سافرة شوهاء، تكشفا يزعج أطراف المناقشة، ويدهش الغرباء الحاضرين، ويجعلك تدرك إلى أي مدى كنت مخدوعاً بالظواهر

وكثيراً ما يكون من المؤلم أن تلمس عفواً وتراً حساساً، فإذا بالبركان كان يثور لتلك الكلمة، وإذا بك ترى الحقيقة الكامنة وراء مظهر العلاقات السليم، وما من أسرة تقريباً إلا وفيها وتر حساس وبركان دفين

وفي آل نخليودوف كان هذا الوتر الحساس وحب ديمتري العجيب لليوبوفسيرجيفنا، ذلك الحب الذي كان يثير لدى أمه وأخته الغيظ والحزن والكبرياء الجريحة. وهذا هو السر في أن المناقشة حول ايفان ياكوفلفتش وما يتصل به من خرافات على درجة قصوى من الأهمية في نظر الجميع.

وسمعت فارنكا تقول بصوتها الرخيم وهي تفرق بين الحروف:

–إنك مغرم دائماً بكل ما يعرض عنه الناس أو يستخفون به

ويستسخفونه، وتجتهد أن تكتشف فيه شيئاً رائعاً

فأجاب ديمتري وهو يشيح عن أخته بعصبية:

–أولاً وقبل كل شيء لا يجسر على رمي رجل مثل ايفان ياكوفلفتش بالسخف والزراية إلا شخص طائش، وثانياً إنك أنت التي تتعمدين ألا تدركي المزايا الواضحة التي تحت سمعك وبصرك

وعندئذ عادت صوفيا ايفانوفنا إلى الشرفة، وحدقت في ارتياع المرة بعد المرة نحو ابن أختها، ثم بنت أختها، ثم نحوي، وفتحت فمها مرتين كأنها تريد أن تتكلم، وتنهدت ثم قالت لبنت أختها وهي تقدم إليها الكتاب وتربت على يدها في حنان:

– أرجوك يا فارنكا أن تستأنفي القراءة، فإني متلهفة على أن أعرف هل عثر عليها أم لا...؟

والواقع أن الكتاب لم تكن فيه كلمة واحدة تدل على بحث أحد عن أحد، ولكنها حيلة ابتدعتها، واستطردت قائلة لديمتري:

– وأنت يا ميتيا، أيها العزيز، يحسن بك أن تدثر خدك لأن الهواء رطب وأخشى أن تصاب بوجع الأسنان مرة أخرى!

ولم تأبه صوفيا لنظرة الغضب والحنق التي رماها بها ابن أختها لأنها قطعت عليه تيار أفكاره وسلسلة حججه، واستأنفت فارنكا القراءة،

وقد أعجبني أن هذه المشاجرة الصغيرة لم تؤثر في صفاء الأسرة، وأن السلام والوئام كانا يسودان ذلك المجتمع النسائي رغم كل شيء

وكان واضحاً أن الأميرة ماريا ايفانوفنا هي التي تسيطر على المجموعة، وكانت طريقتها في الكلام في نظري، ذات طابع منطقي واضح، ولكنها في الوقت نفسه تتسم بالبساطة والأناقة

وكانت شخصيتهما مرتبطة ومقترنة عندي بجمال وطهارة كل شيء حولها رغم البساطة المتناهية، فالجرس وتجليد الكتاب وقماش المقعد ومفرش المائدة كلها متناسقة مع جلسة الأميرة المعتدلة القامة، وغدائر شعرها الأشيب الظاهرة من تحت قبعتها

ولم يكن غريباً عن أسباب تلك الفتنة، أن النساء الثلاث يتحدثن الفرنسية والروسية مباعدات بين الحروف، متخيرات الألفاظ دقة مسرفة، وأنهن كن يعاملنني كما لو كنت رجلاً راشداً، ويأخذنني مأخذ الجد، ويحدثنني بخواطرهن ويصغين إلى آرائي، وهو أمر لم آلفه، فكان له وقع عظيم في نفسي، أنا الذي لم أزل أخشى أن أسمع أحداً ينتهرني فجأة ليقول لي:

– اذهب أيها الفتى واستذكر دروسك! أتظن أن الناس مستعدون لأخذك وأخذ أقوالك مأخذ الجد؟

وكانت هذه البقية من القلق تدفعني إلى تغيير مقعدي بين الحين

والحين، وكنت أكلم الجميع بحرية، فيما عدا فارنكا التي لم أزل أرى من غير المستحب، بل ومن غير اللائق لسبب ما أن أبدأها بالكلام

وبينما هي تقرأ، وأنا أصغى لصوتها الرخيم، كنت أنظر إليها حيناً، وإلى فضاء الحديقة حيناً آخر، فإن آثار المطر المتجمعة بين الشجر هي كل ما يشغلني، وأقول لنفسي:

– من المؤسف أنني مرتبط بالحب، وأن فارنكا ليست سونشكا، فإنه لشيء جميل أن يغدو الإنسان عضواً في أسرة رائعة كهذه، أذن لصارت لي أم وخالة وزوجة بعملية واحدة!

وجعلت وأنا أراجع هذه الخواطر وأجيلها في نفسي أنظر إلى فارنكا وهي تقرأ وأفكر في أنني أستطيع التأثير عليها بحيث أجعلها تنظر إلى نتيجة لقوة إيحائي، ورفعت فارنكا رأسها عن كتابها، ونظرت نحوي، ولما التقت عيناها بعيني حولتهما إلى بعيد وقالت:

– إن المطر لم ينقطع بعد

وعندئذ شعرت بشعور عجيب، وجعلت أسأل نفسي:

– أتراها هي فتاة أحلامي؟

ثم سرعان ما قررت أنها ليست هي، لأنها ليست جميلة وليس فيها ما يميزها، فهي فتاة عادية تعرفت بها بوسيلة عادية، أما فتاة أحلامي

فيجب أن تكون رائعة خارقة للمعتاد

نزهة

وحان وقت تناول الشاي، فوضع حداً للقراءة، ودار بين السيدات حديث عن أشخاص وأمور ليست لي بها دراية، وخيل إلي أن ذلك متعمد كي أشعر على الرغم من الاستقبال الودي بفارق السن وبالمكانة بيني وبينهن

ولكني عندما أتجه الحديث إلى موضوعات عامة عوضت فترة الصمت التي مرت بي، وحاولت أن أستعرض ذكائي الوقاد وأصالتي، مدركاً أن ثوبي الرسمي يطالبني بالبلاء بلاء حسناً في هذا المجال

وعندما جرى في الحديث ذكر البيوت الصيفية، قلت فجأة أن الأمير ايفان ايفانتش لديه فيلاً بالقرب من موسكو بلغ من جمالها أن الناس يأتون من لندن وباريس لمشاهدتها، وأن سياج الحديقة مصنوع من القضبان، وقد تكلف صنعه أكثر من ثلثمائة وثمانين ألف "روبل"، ولم يفتني أن أردف بهذا القول مباشرة أن الأمير ايفان ايفانتش من أقرب أقربائي، وإني تناولت الغذاء معه في ذلك اليوم، وأنه شدد في دعوتي لقضاء الصيف بطوله معه في تلك الفيلا، بيد أنني رفضت معتذراً، لأني أعرف تلك الفيلا معرفة جيدة جداً، إذ سبق لي أن زرتها مرات كثيرة، وأن البساتين والمناظر الطبيعية لا تعنيني كثيراً، فأنا لا أطيق الترف والبذخ، ولاسيما في الريف. فما معنى أن يكون الريف مثقلاً بالزخارف

التي تخرجه عن جوه الفطري؟

وما إن فرغت من إلقاء هذه الأكذوبة المعقدة البشعة حتى أدركني الاضطراب على الفور، واحمر وجهي احمراراً شديداً، حتى إن جميع الحاضرات أدركن ولاشك أني كذبت عليهن

ولاحظت أن فارنكا التي مدت إلى يدها بفنجان الشاي في تلك اللحظة، وأن صوفيا ايفانوفنا التي ظلت تحدق في وجهي وأنا أتكلم، أشاحتا كلتاهما بعيداً عني وأخذتا تتكلمان في موضوع آخر، وعلى وجهيهما سمة أعرفها جيداً، وكثيراً ما لاحظتها على كرام الناس بعد ذلك عندما يأخذ شاب من الشبان في إلقاء الأكاذيب السافرة أمامهم بلا تورع، وتكاد تلك السمة أن تقول:

–إننا طبعاً نعرف أنه يكذب، ونعرف أيضاً لماذا يكذب هذا المسكين!

والواقع أن السبب الذي دفعني إلى القول أو الإدعاء بأن الأمير ايفان ايفانتش يمتلك تلك الفيلا المزعومة، أنني لم أجد وسيلة أفضل من هذه لإبلاغهن مدى قرابتي للأمير إيفان ايفانتش، وإنني حظيت بتناول الغداء معه على مائدته ذلك اليوم

ولكن ما الذي حدا بي أن أقول أن سياج بستاته يساوي ثلثمائة وثمانين ألف "روبل"، ولماذا قلت أنني كثيراً ما زرته في تلك الفيلا مع

أني لم أزرها مرة واحدة، ولم يكن في استطاعتي أن أزورها إطلاقاً، لأن الأمير ايفان ايفانتش يقيم بصفة مستمرة أما في موسكو أو نابلي، وذلك أمر يعرفه آل نخليودوف تمام المعرفة. ما الذي جدا بي إلي ذلك الكذب المفضوح؟

لا أستطيع أن أجد لهذا السؤال تفسيراً واضحاً، وأنني حين أراجع طفولتي، وسائر مراحل عمري التالية لا أعثر على أثر لرذيلة الكذب عندي، بل إني على العكس كنت معروفاً بفرط الصراحة وفرط الاستقامة والصدق، غير أن هذه الفترة الأولى من المراهقة كانت تستبد بها رغبة غريبة في الكذب بأجلي معانيه، ومن غير سبب ظاهر على الإطلاق

أقول الكذب بأجلي معانيه، وأنا أقصد هذا التعبير، لأني كنت حينئذ أكذب في أمور كان من اليسير جداً افتضاح كذبي فيها بغاية الجلاء، ويخيل إلى أن ذلك يرجع إلى رغبة في الأبهة الكاذبة تجعلني أحاول إظهار نفسي في صورة مخالفة تمام المخالفة لحقيقتي، مع أمل وهمي في الحياة، ورجاء خرافي إلا تفتضح أكاذيبي، وهكذا كنت أتورط في ذلك السراب الخادع

وبعد الانتهاء من تناول الشاي، كان المطر قد انقطع عن التساقط، وأصبح المساء صافي السماء هادئاً لا تشوب هدأته شائبة، فاقترحت الأميرة أن نذهب للنزهة في الحديقة السفلي كي نشاهد البقعة المحببة لديها

وإيثاراً للخطة التي اتخذتها لنفسي أن ألزم جانب الأصالة والتفرد على الدوام، وعلى افتراض أن ذوي الفهم والفطنة من الناس ممن على شاكلة الأميرة وشاكلتي ينبغي أن يرتفعوا بأنفسهم فوق تفاهات المجاملة وما يسمى بالسلوك المهذب، أجبت عن تلك الدعوة بأني أكره السير على غير هدى، أو السير للسير، وزدت على ذلك أنني إذا عن لي أن أسير يوماً ما، فإني سأوثر أن يكون سيري بمفردي تماماً!

ولم يخطر ببالي أن هذا الجواب فيه فظاظة صريحة، وكنت أعتقد في ذلك الوقت أنه ما من شيء أنفى للفظاظة من المجاملة السطحية، وما من شيء أقرب إلى القلب وأخف على النفس وأدل على الأصالة من الصراحة التي لا تخلو من جلافة!

ومع كل هذا، فقد مضيت للنزهة على الأقدام مع بقية الجماعة وأنا راض أشد الرضى عن نفسي!

وكانت البقعة الأثيرة لدى الأميرة في أقصى أطراف الحديقة المترامية، فوق معبر صغير مقام على بركة صغيرة، وكان المنظر هناك محدوداً للغاية، بيد أنه يثير الأسى الشاعري الذي تطيب له النفس

وقد بلغ من تعودنا الخلط بين الفن والطبيعة إننا كثيراً جداً ما يلتبس علينا الأمر، فحين نرى من مظاهر الطبيعة ما لم نشاهد مثله في الصور لا يخطر ببالنا إننا إزاء منظر طبيعي حقيقي ونخال جماله مصنوعاً، والعكس صحيح، أي إننا عندما نشاهد منظراً مصنوعاً قد يخيل إلينا أنه

طبيعي صرف لمجرد أننا شاهدنا له مصداقاً في الصور المألوفة لدينا

وكان المنظر الذي تراءى لنا من فوق المعبر ينتمي لذلك الطراز، فهناك بركة صغيرة تنمو فوق شطآنها الأعشاب الكثيفة، ومن ورائها مباشرة تل مغطى بالأشجار المتسلقة والشجيرات ذات الألوان المتعددة، وعند سفح التل شجرة سرو عتيقة تبدو جذورها السميكة ضاربة في شاطئ البركة، وتتدلى فروعها المهيبة فوق سطح البحيرة الأملس، فتنعكس هناك تلك الخضرة الفيحاء

وصاحت الأميرة وهي تهز رأسها غير موجهة خطابها إلى أحد بالذات

–يا له من جمال ساحر!

فقلت وأنا أهدف إلى إظهار أصالة تفكيري واستقلال رأيي في كل شيء:

–منظر جميل فعلاً، ولكنه يبدو على صورة ما وكأنه منظر مسرحي! أن يد الصنعة ظاهرة فيه بجلاء!

ولبثت الأميرة تبدى إعجابها بالمنظر كأنها لم تسمع تعليقي هذا، ثم التفتت إلى شقيقتها وليوبوفسيرجيفنا وراحت تشير لهما بيدها إلى تفاصيل بديعة متفرقة كانت تستثير إعجابها بوجه خاص، فقالت صوفيا ايفانوفنا إن المنظر كله غاية في الجمال، حتى إن شقيقتها كثيراً ما تمضي

ساعات متوالية في هذا الموضع لا تسأم ولا تمل

وكان واضحاً أن صوفيا تقول ذلك لمجرد الرغبة في إرضاء شقيقتها الأميرة، فقد لاحظت أن أولئك الناس الذين وهبتهم الطبيعة تلك الملكة الخاصة التي أسميها أنا الحب الإيجابي قلما يكترثون لنواحي الجمال في الطبيعة الصامتة

أما ليوبوفسرجيفنا فكانت تبدو مبهورة بما ترى، تعلق على هذا الغصن وذاك اللون، وتنظر بين الحين والحين إلى سوزيت جروها الصغير الذي جعل يقطع المعبر ذهاباً وإياباً بقوائمه القصيرة المعوجة وهو يهز ذيله هزاً عصبياًً قلقاً، كأنما هذه أول مرة ينطلق فيها الجرو الصغير من أسار الحجرات

أما ديمتري فشرع في مناقشة منطقية مع أمه، زاعماً أنه ما من منظر يمكن أن يكون تام الجمال وهو محدود الأفق، وظلت فارنكا صامتة لا تقول شيئاً، ولما نظرت إلى جهتها رأيتها واقفة متكئة على سياج المعبر وصفحة وجهها إلى جهتي، تحدق أمامها مباشرة

ولعل شيئاً ما كان يشغل بالها انشغالاً تاماً، أو يستأثر بوجدانها، فقد كان واضحاً لذي عينين أنها مستغرقة في حلم من أحلام اليقظة، فلم تكن تشعر بنفسها أو يخطر لها أن أحداً يتطلع إليها

وكانت عيناها الواسعتان تنمان عن صفاء شديد وتركيز وتفكير

صادق، ومظهرها في وقفتها كان خالياً من التصنع، وعلى الرغم من قصر قامتها كانت المهابة بادية عليها، حتى إنني أخذت أخذاً شديداً وراجعت نفسي مرة أخرى متسائلاً:

– أليست هذه هي فتاة أحلامي؟ أليس هذا هو بداية الحب الموعود؟

ومرة أخرى أجبت نفسي أني مرتبط فعلاً بحب سونشكا، وإن فارنكا أن هي إلا فتاة من الفتيات وشقيقة صديقي، ولكني أحببتها في هذه اللحظة، ولذا شعرت برغبة غامضة في أن أفعل أو أقول شيئاً يضايقها إلى حد ما، فقلت لصديقي وأنا أقترب من فارنكا حتى تسمع ما سأتفوه به:

– إنك تعلم يا ديمتري رأي في المناظر الطبيعية، فحتى لو كان هذا المكان خالياً من البعوض لما وجدت في هذا المنظر جمالاً، أما هذا البعوض الكثير فيجعله موضعاً فظيعً حقاً

فقالت فارنكا لي من غير أن تدير نحوي رأسها:

– أنت أذن لا تهتم بالطبيعة؟

فأجبتها وأنا شديد السرور لنجاحي في إثارة استيائها ولفت نظرها إلى أصالتي:

–إن الإعجاب بالطبيعة نوع من تشاغل الفارغين والكسالى وأهل البطالة!

فرفعت فارنكا حاجبيها شيئاً ما برهة قصيرة في إشفاق، وواصلت التحديق أمامها بعد ذلك في هدوئها السابق

وشعرت بالاضطراب بالقرب منها، ولكني ظللت بعد ذلك أذكر في أوقات كثيرة منظرها وهي تطل من فوق سياج المعبر على البحيرة التي انعكست فيها أضواء المساء وظلال شجرة السرو، ونظرتها الصافية وطلعتها المهيبة، ولذعات البعوض التي أصابت جبيني

في الريف

وفي اليوم التالي توجهت أنا وفولوديا في عربة من عربات البريد إلى الريف، وتواترت على ذهني وأنا في المركبة جميع ذكرياتي التي تربطني بمدينة موسكو، وتذكرت سونشكافالاخينا، بيد أني لم أتذكرها ألا قرب المساء بعد أن قطعنا خمس مراحل، وقلت لنفسي:

–ما أعجب أمري! إنه لغريب حقاً أن أكون عاشقاً وامقاً، ومع هذا أجدني قد نسيت أمر حبي ومحبوبتي تماماً. ينبغي أن أفكر فيها!

وشرعت فعلاً أفكر فيها بناء على ذلك التصميم، على نحو ما يفكر المسافرون عادة، أعني تفكيراً غير متماسك بيد أنه يتسم بالحيوية والتوقد، وهكذا بلغت بي الحالة تحت وطأة هذا التفكير أنني رأيت مما

لا مناص منه أن أبدو حزيناً نهباً للتفكير العميق مدى يومين على الأقل بعد وصولنا إلى الريف، حتى يرى الجميع من أهل البيت حقيقة حالي، ولاسيما كاتنكا التي كنت أعتبرها خبيرة عظيمة عارفة بهذه الشئون، وكنت قد لمحت لها عن الحالة التي صار إليها فؤادي

ولكن على الرغم من جميع المحاولات المتعمدة لتقمص مارات التوله والوجد التي سبقت لي ملاحظتها على المتيمين والعاشقين، لم أفلح في مدى اليومين في تذكر غايتي والدور الذي أقوم به طول الوقت، بل كنت أتذكر دوري في المساء غالباً، بعد أن يكون النهار قد انقضى وأنا خلي البال تحت أنظار الجميع! وأخيراً استوعبتني دوامة الحياة الريفية بمشاغلها استيعاباً سريعاً حتى لم يعد يخطر ببالي أمر حبي لسونشكا! ، وكنت غارقاً عندئذ في النعاس فلم أر البيت ولا الممشى المحفوف بأشجار السرو، ولا أحداً من آل البيت الذين كانوا قد أووا إلى مضاجعهم منذ وقت طويل واستسلموا للنوم، وفتح لنا الخادم العجوز فوكا الباب وفي يده شمعة، حافي القدمين، مقوس الظهر، وقد التف بزي نسائي قديم

وارتعد الرجل العجوز من فرط السرور عندما رآني أنا وأخي، وقبلنا على عادة الفلاحين في التحية والتكريم فوق أكتافنا ثم أسرع يرتدي ثيابه، ودخلنا إلى دهليز به سلم البيت من غير أن أفيق من نعاسي تمام الأفاقة، حتى إذا دخلنا حجرة الجلوس الأولى نبهتني مناظرها المألوفة وأثاثها وشمعدانها القديم ومدفأتها الحافلة بالرماد الخابي، فأفلحت هذه

المشاهد المأنوسة في تنبيه وجداني وكأنها موسيقاً عذبة تهدها أيامنا الخوالي، فقلت لنفسي:

–كيف استطعت أن أعيش كل ذلك الزمن بعيداً عن هذا البيت العزيز العتيق؟ وكيف استطاع البيت أن يطيق بعادي عنه فلا تتداعى دعائمه؟ إنها لعجيبة لا أستطيع أن أصدقها!

وبالفعل أسرعت أجري هنا وهناك لأرى بعيني رأسي هل لم تزل حجرات الدار العتيقة كالعهد بها أم غيرتها يد العفاء بعد أن افتقدتني طويلاً؟!

ووجدت كل شيء على حاله القديم، ما خلا أمراً واحداً، أن كل شيء صار أصغر حجماً وأقل ارتفاعاً، في حين صرت أنا أطول قامة وأثقل وزناً وأضخم جثة! ومع ذلك فإن البيت العتيق العزيز تلقاني رغم تغيره وتغيري بسرور مفرط بين أحضانه كأنني لم أزل في مهاد الطفولة لم أشب عن الطوق ولم تفارقني البراءة والوسامة! تلقاني كما أنا على علاتي!

وإذا كل رقعة من خشب الأرض، وكل نافذة أو شرفة، وكل درجة من درجِ السلم، وكل صوت، وكل نأمة، توقظ في أغوار وجداني عالماً بأسره من الرؤى والمشاعر والذكر التي تقترن بأحداث ذلك الماضي السعيد الذي هيهات أن يعود!

وذهبنا إلى مخدع طفولتنا الأولى، فإذا هناك جميع مخاوف الطفولة بتهاويلها الساذجة لم تزل رابضة تتلكأ في ظلمات أركانها وأبوابها وخلف ستائرها... ودخلنا إلى حجرة الاستقبال، فإذا- لهف نفسي!- حنان الأمومة القديم على عهده لم يزل عالقاً بكل آثار تلك الحجرة التي تضمها بين جدرانها الأربعة في حدب وحفاظ

وخرجنا إلى البهو، فخيل إلى أن عبث الطفولة اللاهية اللاغية وأصداء ضحكاتها الصاخبة المدوية لم تزل تتردد بين السقف والجدران، لا تنتظر إلا إشارة لتنفض عنها الوسن وتهب إلى سابق عربدتها، التي- ويح نفسي!- هيهات هيهات أن تعود!

وانتقلنا إلى حجرة جلوس داخلية قادنا إليها فوكا حيث أعد لنا فراشين، فكأنما كل شيء: من المرآة الكبيرة والستائر والأيقونة الخشبية العتيقة وكل بروز في الحائط المكسو بالورق الأبيض، وقد أصبح لساناً انبرى يحدثنا حديثاً طويلاً وجيعاً مؤسياً عن العذاب، وعن الموت، وعن أولئك الذين هيهات هيهات أن يعاد لهم غدو بيننا ورواح!

واستلقينا على الفراش، وغادرنا فوكا بعد أن تمنى لنا ليلة سعيدة، وساد الحجرة الكبيرة صمت واجم، إلى أن قال فولوديا:

-أليست في هذه الحجرة ماتت أمنا؟

ولم أحر جواباً، وتصنعت النوم، فلو إني فتحت فمي لأقول له

حرفاً واحداً لانفجرت باكياً

ولما استيقظت في الصباح رأيت والدي لم يزل في ثياب النوم وفي قدميه خفه المزخرف، جالساً على فراش فولوديا يحادثه ويضاحكه، فلما رآني استيقظت وثب وثبة طروباً وأقبل نحوي فضربني على ظهري بيده الضخمة مازحاً، ثم قدم إلى خده وضغط به شفتي، وقال لي بصوته المنغم وهو يرمقني بعينيه الصغيرتين المتوقدتين:

–بورك فيك أيها الدبلوماتي وشكراً لك وهنيئاً، أخبرني فولوديا أنك أبليت بلاء حسناً في الامتحان، وهذا شيء عظيم، والحقيقة أنك فتى رائع عندما تتعمد ألا تكون غبياً! شكراً لك يا ولدي العزيز! والآن سنقضي وقتاً جميلاً لطيفاً هنا، وربما انتقلنا في الشتاء إلى سان بطرسبرج، وكم يؤسفني أن موسم الصيد هنا قد انقضى، فإني كنت أحب أن أمتعك بشيء من مسرات الصيد، هل تحسن الرماية أيها العزيز؟ إن الصيد هنا لا حصر له، ويوماً ما سأخرج معك بنفسي، سننتقل بمشيئة الله إلى سان بطرسبرج في الشتاء، وهناك ستتعرف بالناس وتنشئ العلاقات معهم، إنك كبرت الآن يا ابني، وكنت منذ قليل أخبر أخاك أنني والحمد لله قد أتمم رسالتي، وفي وسعكما الآن أن تقوما على قدميكما وحدكما وتنهضا بأمركما من دوني، وطبعاً سأكون دائماً تحت أمركما كلما عن لأحدكما أن يستنصحني، ولكني سوف لا أكون بعد اليوم والدكما الذي كنته حتى اليوم، ب صديقكما ورفيقكما ومستشاركما ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولا زيادة! فما وقع هذا العزم في ميزان

فلسفتك أيها الدبلوماتي الصغير؟ أخيراً تراه أم شراً؟

وقد أجبت بالطبع أني أرى في هذا العزم الخير كل الخير، وكان هذا هو رأيي حقاً... والواقع أن والدنا كان في ذلك اليوم يبدو جذاباً ساحراً مرحاً سعيداً، وكانت هذه العلاقة الجديدة بيننا وبينه، على أساس المساواة والزمالة والصداقة تجعله أحب إلى نفسي من أي يوم مضي

واستطرد أبي بعد ذلك يسألني:

—والآن خبرني، هل قمت بزيارة جميع أقاربنا، وزيارة آل ايفين؟ وهل قابلت الشيخ؟ وماذا قال لك؟ وهل زرت الأمير ايفان ايفانتش؟

وأخذنا بعد ذلك نتجاذب الحديث الهين أمداً طويلاً قبل أن نرتدي ثيابنا، حتى أن أشعة الشمس بدأت تنجاب عن نوافذ الحجرة، ودخل علينا العجوز ياكوف وأصابعه ترتجف خلف ظهره كسالف العهد وقال لأبي أن العربة قد جهزت كما أمرت، فسألت أبي:

—إلى أين أنت ذاهب؟

فقال أبي وهو يهز كتفه ويتنحنح شأنه حين يحرج:

—آه، نسيت هذا الأمر... الواقع أني كنت قد وعدت بالذهاب لزيارة ابيفانوفا اليوم، هل تذكران ابيفانوفا الفلمنكية الحسناء؟ أنها كانت دائماً تزور أمكما، وأهلها قوم ظرفاء للغاية

ثم هز كتفه هزة أخرى تدل على الارتباك- فيما خيل إلي- وغادر الحجرة، وكانت ليوبا قد ترددت على الباب جملة مرات، وتصرخ في كل مرة:

-هل أستطيع أن أدخل؟

وفي كل مرة كان أبي يصرخ:

-طبعاً لا، فإننا لم نرتد ثيابنا بعد

فتصرخ ليوبا من الخارج معترضة:

-وما الضرر؟ لقد رأيتك في ثياب النوم من قبل يا أبي؟

فيصرخ أبي محتجاً:

-ولكن أخويك ليس في وسعك أن تريهما في ثيابهما الداخلية، هل يمكنك أن تأذني لهما بدخول حجرتك وأنت في الفراش؟ من غير اللائق أن يحدثاك وهما بهذه الملابس

فترد عليه ليوبا من الخارج محنقة:

-أنت حقاً لا تطاق! هيا أسرعوا وانزلوا إلى حجرة الاستقبال فإن ميمي تريد أن تراكم بفارغ الصبر

فما أن غادر والدي الحجرة حتى أسرعت أرتدي ثوبي الجامعي الجديد ونزلت إلى حجرة الاستقبال، أما فولوديا فلم يكن في عجلة من أمره بل قضى وقتاً طويلاً يتحدث إلى ياكوف العجوز عن أحسن المواضع لصيد الطيور البرية، فإن أخي لم يكن يكره شيئاً في الدنيا كراهته لإظهار العواطف في محيط الأسرة، سواء مع أبيه أو أخيه أو أخته، ويحتمي من إظهار عواطفه الطبيعية نحوهم بتصنع النقيض، وهو البرود التام الذي يؤذي في أحيان كثيرة شعور من لا يفهمون دوافعه الحقيقية

وفي حجرة الجلوس الخارجية قابلت أبي متجهاً إلى العربة بخطوات قصيرة متوثبة، وقد ارتدى حلته الأنيقة الجديدة التي صنعت على أحدث زى في موسكو، والعطر يفوح من أردانه

وما أن وقع بصره علي حتى أو ما برأسه في مرح كأنه يقول:

—ألا تراني فاتنا وقد تأنقت وتعطرت؟

ومرة أخرى استلفت نظري وميض السعادة في عينيه، ذلك الوميض الذي استلفت نظري أول ما تنبهت من نومي في الصباح

ودخلت حجرة الاستقبال فإذا بها كالعهد بها تلك الحجرة الفخمة العالية الجدران وبها ذلك البيانو الضخم المصفر اللون على الطراز الانجليزي، والنوافذ الضخمة التي تتراءى من خلالها الأشجار الخضراء

وممرات الحديقة ذات الرمال الصفراء المحمرة، وبعد أن قبلت ميمي ولبوبا توجهت نحو كاتنكا، وفجأة تذكرت أنه لم يعد من المناسب تقبيلها فوقفت أمامها متضرج الوجه، ولم ترتبك كاتنكا إطلاقاً بل مدت إلى يدها وهنأتني بنجاحي ودخولي الجامعة

وعندما دخل فولوديا تكرر الحرج حينما رأى كاتنكا، فمن الصعب أن يحدد الإنسان علاقته بها وقد تربينا معاً ثم افترقنا أمداً طويلاً لأول مرة، وأحمر وجه كاتنكا، أما فولوديا فلم يظهر عليه الارتباك بل انحنى لها انحناء يسيراً، ثم سار نحو ليوبا وتحدث معها برهة حديثاً غير جدي، وخرج بعد ذلك ليتنزه في مكان ما من الضيعة، فهو لا يستحسن أن يطيل المكث في الفتيات، ويرى ذلك من علامات الطفولة والصغار

نحن والفتيات

كانت نظرة فولوديا إلى الفتيات غريبة حقاً، حتى إنه كان بوسعه أن يشغل نفسه بصددهن من نواح عجيبة مثل: هل هن جائعات؟ هل نمن مدة كافية؟ هل ملابسهن لائقة؟ هل ارتكبن أخطاء في التحدث باللغة الفرنسية من شأنها أن تجلله بالعار أو الخجل أمام الغرباء؟

وفي الوقت نفسه لم يكن يجول بفكره أي احتمال لكونهن يستطعن التفكير أو لهن القدرة على الشعور الإنساني بمعنى الكلمة، ومن باب أولى كان فولوديا لا يمكن أن يصدق إنه من المستطاع مناقشتهن في أي موضوع جدي فعندما يتفق أحياناً أن يذهبن إليه

لمحادثته في مسألة جدية- مع أنهن كن يتحاشين التوجه إليه في تلك الأمور غالباً- كأن يسألنه عن رأيه في رواية من الروايات أو يستوضحه أمراً من أمور دراساته الجامعية، كان عندئذ يقطب وجهه ويشيح عنهن وينصرف في صمت، أو يجيب بعبارة تهكمية فرنسية مثل:

-شيء لطيف جداً!

أو يكسو وجهه بقناع جامد من الغباء المتعمد والجد التهكمي ثم يقول كلمة لا معنى لها، أو لا علاقة لها إطلاقاً بموضوع السؤال مثل:

-كرنب! يدحرج! زمارة!

أو غير ذلك من الألفاظ، وعندما يتفق أن أسرد على مسامعه ألفاظه تلك قائلاً أن ليوبا أو كاتنكا سألتني عن معناها، كان يقول دائماً:

-هيه! أنت إذن لم تزل تناقش الفتيات وتأخذهن مأخذ الجد في الكلام؟ معلوم! فأنت كما أرى لم تزل فتى غفلاً!

ولابد أن يسمعه الإنسان وهو يقول هذا الكلام كي يدرك مدى ازدرائه الراسخ العميق الذي يضمنه كل تعليق له على جنس الفتيات!

وكان فولوديا قد أصبح شاباً بالغاً أشده منذ سنتين، ولم يزل طيلة هاتين السنتين يتردى في غرام كل امرأة مليحة يلتقي بها، ومع أنه ظل يرى كاتنكا كل يوم (ولها الآن سنتان ترتدي الثياب النسوية الطويلة

وتزداد ملاحة يوماً بعد يوم) إلا أن احتمال ترديه في هواها لم يجل بخاطره إطلاقاً.

ولعل ذلك راجع إلى ذكريات الطفولة التي تجمعهما معاً، وما في تلك الذكريات من ألفه عادية تصل في نظره إلى حد الابتذال الذي يتنافى مع روعة الشعور بالحب، أو قد يكون عزوفه عن حبها ما يشعر به بعض الأحداث من الشبان من نفور وتقزز نحو كل ما هو بيتي أو له صلة بالأسرة، أو لعلها غرور الشباب اليافع حينما يعتقد في حسن طالعه وثراء مستقبله، فكلما رأى شيئاً جميلاً غاية الجمال مني نفسه أنه ليس شيئاً مذكوراً بالقياس إلى ما سوف يتكشف له عنه الغد من روائع الحسن ومفاتن لجمال الخلاب!

ومهما يكن من أمر، فالواقع الذي لا مرية فيه أن أخي فولوديا لم ينظر إلى كاتنكا حتى ذلك اليوم نظرة رجل إلى امرأة

ومما لاشك فيه أيضاً أن فولوديا كان نهبا للسأم والملالة طيلة ذلك الصيف في الضيعة، وكان المصدر الأكبر لضجره أنه كان يزدري صحبتنا ويضيق بها، ولم يكن يعني نفسه بإخفاء تلك الزراية أو ذلك الضيق، فكانت سحنته تنطق على الدوام بعبارة لا تتغير:

–ما أشد هذه الوحدة على نفسي! فلست أرى أحداً أحدثه ويحدثني! هل خلا العالم من الناس؟ ألا من أنيس؟

وفي كل صباح كان يذهب للرماية في الخلاء أو في الغابة، أو يقبع في حجرته يطالع كتاباً ويظل إلى الظهر بثياب النوم لا تنازعه نفسه إلى ارتداء ملابسه والخروج إلينا، وعندما يغيب والدنا عن البيت، كان يأتي بكتابه في يده إلى مائدة الطعام، ويظل يطالع فيه من غير أن يوجه إلينا الخطاب أو يبادلنا كلمة واحدة على سبيل المجاملة، إن بالإيجاز وأن بالإسهاب! وكان ذلك يشعرنا بشيء من التأثيم إزاءه على نحو ما

وفي المساء كان يستلقى على الأريكة في حجرة الاستقبال، وأما أن ينام متوسداً ذراعه، أو يقص على مسامعنا قصصاً لا يليق سردها، بل إنها أحياناً كانت تصل إلى حد النفحش، فتغضب أختي ميمي ويحتقن وجهها احمراراً وينفجر بقيتنا ضاحكين!

ومجمل الكلام أن فولوديا كان لا يتنازل باتخاذ الجد في حديثه أو مناقشاته مع أحد في البيت سوى والدنا، وأحياناً قليلة معي شخصياً، وإني أقر إنني كنت- من غير وعي مني أو تعمد- أقلد شقيقي في محاكاة فردية من حيث نظرته إلى الفتيات وسلوكه معهن، مع إني لم أكن أخشى إظهار عواطفي كما يخشاه هو، ومع أن ازدرائي للفتيات لم يكن عميقاً موغل الجذور راسخ الدعائم كازدرائه لهن

وقد حاولت جملة مرات خلال ذلك الصيف- افتقاداً للمسليات- أن أنشئ علاقات وثيقة مع ليوباوكاتنكا بحيث تتسم أحاديثنا بشيء من الجد والتقدير المتبادل، ولكنني في كل مرة من هذه المرات كنت

اكتشف افتقارهن الشديد إلى التفكير المنطقي وجهلهن بأبسط المعلومات الدنيوية مثل قيمة النقود، ومعنى الحرب، ومواد الدراسة في الجامعة، وما إلى ذلك واكتشف أيضاً عدم اكتراثهن بما أدلى به من شروح وتوضيحات حول هذه الأمور، فكنت أعود مضطراً إلى سوء الرأي في الفتيات

أني لأذكر أن ليوبا ظلت ذات ليلة تكرر على البيانو عزف مقطوعة سخيفة، وكان فولوديا راقداً على الأريكة في حجرة الاستقبال يهوم للنوم، فجعل يعلق على عزفها بتعليقات ساخرة لاذعة، وهو يخاطب نفسه غير متجه بالكلام إلى أحد بالذات

وكنت جالساً مع كاتنكا إلى مائدة الشاي لم نتم تناوله بعد، ولا أدرى كيف حولت كاتنكا الحديث إلى موضوعها المفضل: الحب. وكنت عندئذ في حالة عقلية أميل إلى التفلسف، فبدأت بتعريف الحب قائلاً:

– الحب هو رغبة المرء في الحصول على شيء لا يملكه

أو كلاماً من ذلك القبيل، بيد أن كاتنكا أجابتني معترضة بأن الحب لا يمكن أن يكون حباً حقاً حينما تتمنى الفتاة الزواج من رجل بسبب ثرائه، وأكدت لي رأيها الراسخ أن الملكية أتفه وأسخف ما في الوجود، وأن الحب الحقيقي إنما هو الحب الذي يصمد للفراق، فأدركت من قولها هذا أنها تلمح إلى حبها لدبكوف

ويظهر أن فولوديا سمع طرفاً من هذا الحديث، فقد نهض جالساً وصاح يسأل كاتنكا عن مسألة لا علاقة لها أبداً بما نحن فيه

وبصرف النظر عن الصفات العامة كالذكاء والفطنة والإحساس الفني، هناك صفة خاصة يتفاوت حظها من النمو في الأوساط المختلفة من المجتمع، ولاسيما في الأوساط العائلية، وهذه المزية الخاصة هي ما أسميه الفهم أو التفاهم، وجوهر هذه المزية هو الإحساس بما يليق وما يناسب هذا الوسط المعين

وبفضل هذه المزية يستطيع أي اثنين من أفراد عائلة معينة أن يتفاهما من غير حاجة إلى استخدام الألفاظ للتعبير عن مرادهما كله، فيدرك كل منهما الحد الفاصل في كلام الآخر بين الإطراء والاستهزاء، وبين الحماسة والادعاء، فالتفاهم نوع خاص من الفطنة تصلح لغة محدودة بين أفراد معينين، بل قد تنشأ على أساسها لغة خاصة فعلاً بمثابة نوع من الشفرة يستعمله المتفاهمون عليها

وفي أسرتنا كانت هذه اللغة الاصطلاحية ذات المفهوم الخصوصي محدودة بأطراف ثلاثة هم: أبي وأخي وأنا، ثم أضيف إلينا شخص رابع هو دبكوف، أما ديمتري فمع أنه كان أشد ذكاء دبكوف بكثير إلا أنه لم يندمج في هذا المحيط الخاص، ولم تصل هذه اللغة الخاصة إلى ذروة مرونتها كما وصلت إليه بيني وبين أخي فولوديا لأننا تربينا في ظروف واحدة تماماً، وصارت الشقة بعيدة شيئاً ما بيننا وبين والدنا

وأصبح من المتفق عليه مثلاً فيما بيني وبين فولوديا استعمال مصطلحات مثل العنب، وسلة المهملات، والتفاح، للدلالة على معان مختلفة تماماً عن هذه المسميات، مثل النقود والتحيز والاستنكار والغمز، وكان لابد من الربط بين نغمة الصوت وتعبير الوجه لإدراك المعنى المحدد للفظ الاصطلاحي

وكانت الفتيات جاهلات تماماً بهذه اللغة الخصوصية التي هي سرنا الخاص، فأصبحت هذه اللغة الشفرية رباطاً وثيقاً بيني وبين أخي يزيد من شعورنا بالتعالي على الفتيات

ولعلهن كن يتفاهمن بلغة مثل لغتنا فيما بينهن، ولكنها كانت لغة تختلف عن لغتنا تماماً ولا نستطيع فهمها، وكانت حداثة سني تحول بيني وبين حسن تقدير عقلياتهن ونوع ذكائهن الخاص وطيبة قلوبهن، ولذا كنت أزدريهن

وكنت أضحك في نفسي استخفافاً عندما أرى ليوبا ترسم فوق أبي علامة الصليب كل ليلة، أو أراها تبكي هي وكاتنكا كلما أقمنا في الكنيسة قداساً على روح أمي، وكنت أظن ذلك تمويها أو تمثيلاً سخيفاً، وكذلك كنت أعتبر من السخافة الهازلة ما يرتسم على وجه كاتنكا من تعبيرات الوجد وهي تعزف البيانو

وجعلت أسأل نفسي متى ينضجن ويتحكمن في سلوكهن والتعبير عن مشاعرهن كما يفعل الكبار، ويقلعن عن هذه الصبيانيات أو الطفليات المضحكة التي تكسوهن بالسخافة المخجلة؟

ورغم كل شيء استطاعت مدة هذا الصيف أن تقرب بين الفتيات وبيني أكثر مما حدث في السنوات السابقة، وذلك راجع إلى الشغف الذي استجد عندي بالموسيقى والعزف، ولذلك قصة طريفة

في ذلك الربيع حضر شاب من أبناء الجيرة لزيارتنا، وما أن دخل حجرة الاستقبال حتى جعل يحملق في البيانو، وظل يقرب مقعده منه شيئاً فشيئاً بينما هو يتحدث أحاديث عرضية مع ميمي وكاتنكا، وبعد أن طرق موضوعات الجو ومسرات الحياة الريفية برهة من الوقت، وجه الحديث بلباقة إلى المعزوفات، والموسيقى والبيانو، ثم تطرق من ذلك إلى القول بأنه يمارس العزف على البيانو شخصياً

وبطبيعة الحال دعى الضيف الشاب إلى تشنيف آذاننا بالعزف، فبادر إلى البيانو وعزف عليه ثلاث رقصات من نوع الفالس، ووقفت ليوبا وميمي وكاتنكا حول البيانو يرقبن يديه وهو يعزف

وانصرف هذا الشاب ثم لم يعد بعدها لزيارتنا بيد أن عزفه أعجبني كثيراً، وأعجبني كذلك أسلوب جلوسه إلى المعزف، وكيفية هز رأسه لتطويح شعره إلى الوراء، وطريقة مد أبهامه وخنصره لعزف ثمن النغمة بيده اليسرى في رشاقة بالغة، ثم ضم هذين الأصبعين لينشرهما من جديد فجأة

كل تلك المظهريات، والاهتمام الذي حظي به من الفتيات لبراعته،

جعلني أتقد رغبة في إتقان العزف على البيانو، وأقنعت نفسي على هذا الأساس بأن لدي الموهبة والشغف بالموسيقى، وشرعت أتعلم العزف

وكان سلوكي في التعلم هو سلوك الملايين من الذكور، ومن الإناث على وجه الخصوص حين يدرسون الموسيقى غير مستعينين بإرشاد معلم جيد، ومن غير ولوع حقيقي بذلك الفن، بل ومن غير الفهم السليم لأصول الفن، فالموسيقى أو على الأصح عزف البيانو لم يكن في نظري عندئذ غير وسيلة للاستيلاء على إعجاب الفتيات عن طريق مشاعرهن

واستعنت بكاتنكا التي جعلت تعلمني النوتة الموسيقية، وتشدد علي في ثنى أصابعي الغليظة للداخل قليلاً، وأقبلت على ذلك بهمة عظيمة مدة شهرين، لدرجة أنني كنت أدرب أصبعي البنصر المتمرد على الانثناء، بأن أثنيه فوق ركبتي وأنا على المائدة، وفوق الوسادة وأنا في الفراش، وأخذت بعد ذلك أعزف مقطوعات، وكنت أعزفها بروحي وأعصابي، ولكني فشلت فشلاً ذريعاً في حفظ التوقيت بين الأنغام

وكان اختيار المقطوعات من بين المعزوفات المألوفة، مثل الفالس وأغاني الحب وما إلى ذلك، وجميعها من تأليف موسيقيين ذوي رقة وعذوبة وخفة بحيث يستطيع أي إنسان ذي ذوق أن يختار كومة كبيرة من هذه المقطوعات الجميلة لدى أي بائع للأدوار الموسيقية، لا ليوصيك بعزفها بل ليقول لك في عزم وإخلاص:

–هذا هو النمط الذي ينبغي ألا تعزفه، لأنه ما من شيء يفسد

أذواق فتياتنا وشباننا مثل هذه الرقة السطحية المريضة والعذوبة المظهرية القائمة على الانحلال لا التحليل، وعلى الهزال لا القوة!

ولعل هذه الأسباب عينها التي تجعل تلك الموسيقى الرخيصة شيئاً ممقوتاً في نظر أهل الذوق، هي بعينها الأسباب التي تجعل تلك المعزوفات بعينها أثيرة لدى فتياتنا، يحتفظن بأكوام منها

وللأسف الشديد أن بناتنا الروسيات مصرات على الاحتفاظ إلى جانب تلك المعزوفات الهزيلة بمعزوفتين للموسيقى العظيم بيتهوفن، ونراهن على الدوام يمثلن بهاتين المعزوفتين تمثيلاً سمجاً مؤذياً بسوء عزفهن، وكانت ليوبا أختي تعزفهما دائماً تحية لذكرى أمنا، وكان أستاذ ليوبا وهو من أحسن معلمي الموسيقى في موسكو قد علمها عزفهما، كما علمها مقطوعات أخرى من تأليفه، فكانت تعزف السمين مع الغث بنفس الأسلوب الذي يدل على سوء الفهم وسوء التقدير

وكنت أنا وكاتنكا لا نحب المعزوفات الجدية، ونفضل المقطوعات الخفيفة السريعة التي كانت كاتنكا تعزفها بسرعة فائقة بحيث لا ترى الأصابع وهي تجري فوق المعزف، فكنت أجعل ذلك هو هدفي عندما أجلس إلى البيانو، وسرعان ما أحكمت تقليد جلسة جارنا الشاب إلى البيانو، وصرت أتحسر لأن البيت خال من الضيوف الذين كنت أحب أن يروني في هوايتي الجديدة.

وبعد قليل أيقنت أن "ليست" فوق مستواي ولن أستطيع مجاراة

كاتنكا في عزف ذلك المستوى من المعزوفات، وقام برأسي أن الموسيقى الكلاسيكية أسهل، أو لعل ما في تلك الموسيقى من أصالة قد استهواني، فقررت على الفور أني من هواة الموسيقى الألمانية العميقة، وانصرفت إلى عزف المقطوعتين اللتين تعزفهما ليوبا من تأليف بتهوفن

وقد تكون موهبتي الموسيقية قليلة أو معدومة ولكن إحساسي بالمعاني الموسيقية الرفيعة كان مرهفاً، فكانت الدموع تطفر إلى عيني من شدة التأثر في بعض الأحيان، ولذلك أعتقد أنني لو وجدت في تلك الفترة من العمر من يفهمني جيداً أن الموسيقى غاية في حد ذاتها وليست مجرد وسيلة لإغواء الفتيات واكتساب إعجابهن، لكان من المحتمل أن أصبح موسيقياً لا بأس به

وكانت الروايات الفرنسية ملهاة أخرى انصرفت إليها في ذلك الصيف فكانت من أهم مشاغلي، وهذه الروايات كانت مما جلبه معه شقيقي فولوديا

وفي ذلك الوقت كانت روايات مونت كريستو للمؤلف اسكندر ديما، قد بدأت في الظهور فقراتها باستغراق، ثم غصت في روايات أخرى لمؤلفين فرنسيين مثل بول ديكوك، وإدمون سو، فكانت أغرب الشخصيات وأبعدهاعن المعقول والواقع، وأعجب الحوادث وأشدها إمعاناً في الغرابة وبعداً من التصديق، تبدو لي حية حقيقية واقعية

ولست أعني أني لم أكن أناقش صدق المؤلف أو يخالجني الريب أنه كاذب، أنما أعني أن المؤلف نفسه لم يكن له في نظري وجود، وإنما

الموجود فعلاً والحي فعلاً في كتاباته هو شخوصة التي خلقها خلقاً، فكانت الحوادث والمغامرات والأقوال والأفعال تخرج إلى الحياة بين سمعي وبصري من بين سطور الصفحات المطبوعة، ومع أني لم ألتق في حياتي بأشخاص يسلكون ذلك السلوك أو يقولون ذلك الكلام، إلا أني لم أفكر لحظة واحدة في أنهم موجودون حقاً، أو على الأقل يمكن أن يوجدوا في يوم من الأيام!

واكتشفت في نفسي جميع الانفعالات والعواطف التي وصفها هؤلاء الكتاب في أبطالهم، واكتشفت كذلك شبها في طبعي بين هؤلاء الأشخاص وبيني، على تناقض طباعهم ومسالكهم، سواء منهم الأبطال أو الأنذال، ومثلي في ذلك مثل الرجل الحساس الذي يخال لديه أعراض جميع الأمراض الممكنة حين يطالع كتاباً من كتب الطب!

وما أعجبني في هذه الروايات الفرنسية هو تطرفها غير المعقول في رسم أخلاق أبطالها، فالطيب منهم طيب إلى أقصى حد، والفاسد منهم سافل إلى ما لا نهاية، وكان ذلك يطابق تصوري للناس في باكورة شبابي

وأسعدني كثيراً جداً أن تكون جميع هذه المؤلفات باللغة الفرنسية، مما يتيح لي أن أحفظ عن ظهر قلب الألفاظ الرنانة التي يتشدق بها أبطالها النبلاء، كي أتشدق بها أنا أيضاً يوماً من الأيام عندما تتيح لي الظروف القيام بعمل مجيد، وادخرت كمية من هذه الألفاظ والتعبيرات لاستخدامها في مخاطبة كولبيكوف إذا شاءت الظروف أن ألتقي به يوماً ما!

واستظهرت طائفة أخرى من التعبيرات الفرنسية الرنانة لأخاطب بها فتاة أحلامي حينما تنشق عنها أستار الغيب قريباً وأجثو أمامها لأصارحها بحبي! وحفظت طائفة ثالثة أقولها لضحايا سيفي الذين سأجند لهم صرعى في التو واللحظة

وأخطر تأثير لهذه الروايات الفرنسية على ذهني أنها رسمت إلى حد كبير المثل الأعلى الذي سوف أحتذيه في حياتي مستقبلاً، فقد قررت على ضوء هذه الروايات أن أكون نبيلاً في جميع أعمالي وتصرفاتي، ثم يجب أيضاً أن أكون شديد الحماسة حاضر الانفعال في جميع أقوالي وأعمالي

ولم أزل أذكر من بين مئات الشخصيات التي التقيت بها في تلك الروايات الفرنسية ذلك الصيف شخصية بطل غزير الحاجبين تمنيت أن أحاكيه في مظهري، أما في مخبري فقد كنت مقتنعاً تمام الاقتناع أني أشبه ذلك البطل من غير حاجة إلى محاكاة، ولذا راودتني نفسي يوماً وأنا أتطلع إلى حاجبي في المرآة أن أحلقهما كي تزداد غزارة شعرهما، وتناولت المقص وبدأت أقصقص، وإذا بي أجور على موضع دون موضع، فاضطررت إلى التسوية بين المواضع المختلفة، ولما فرغت من ذلك هالني أن أتطلع إلى المرآة فأرى نفسي وقد خلا وجهي من الحاجبين تمام الخلاء!

وأفزعتني صورتي القبيحة، بيد أني عزيت نفسي بأن حاجبي سرعان ما ينبتان بصورة أغزر وأشبه ببطلي المحبوب، ولكن أقلقني في الوقت

نفسه ما سيعلق به أفراد أسرتي على منظري المضحك، فوضعت شيئاً من البارود على ما تبقى من شعر حاجبي وقربتهما من شمعة ومع أن البارود لم يشتعل إلا أن منظري حمل آثاراً معقولة من الحريق

ولم يفطن أحد إلى حقيقة فعلتي، ونما حاجباي حالاً فصارا أغزر كثيراً من ذي قبل، ولكن بعد أن كنت قد نسيت كل شيء تقريباً عن بطلي الهمام!

كما ينبغي

إن الجنس البشري يمكن أن ينقسم إلى أكثر من فئة وعلى أكثر من أساس واحد، فهناك الأغنياء والفقراء، والصالحون والطالحون، والعسكريون والمدنيون، والأذكياء والأغبياء، وهلم جرا.

وكل إنسان في الدنيا له مبدأ خاص به في تقسيم الناس إلى فئات بحيث يضع كل شخص يلتقي به في فئة معينة بطريقة آلية منذ أول وهلة

وكانت وسيلتي المفضلة في تقسيم الناس إلى فئات في تلك الفترة من باكورة الشباب، هي تقسيمهم إلى طائفتين: من هم كما ينبغي، ومن ليسوا كما ينبغي

أما من هم كما ينبغي، فأولئك من اعتبرهم أنداداً لي، وأما من ليسوا كما ينبغي فكنت أزدريهم في الظاهر، وأما في الباطن فكنت أكرههم وأحقد عليهم وأضمر لهم لسوء والإهانة كأن بيني وبينهم ترة شخصية

وأحط طبقة بين من ليسوا كما ينبغي هم العامة والغوغاء فأولئك لم يكن لهم في نظري وجود في عداد الأحياء

وآية من هم كما ينبغي تتجلى على الخصوص في المعرفة الفائقة باللغة الفرنسية، وإتقان النطق بها على الخصوص اتقاناً لا تأتيه اللكنة، فمن لا يستطيع الكلام باللغة الفرنسية بطلاقة كان يثير في نفسي على الفور شعور الكراهية فأنظر إليه وكأني أقول له:

–يا هذا! لماذا تريد الكلام على منوالنا وأنت لا تدري كيف يكون الكلام بلغة السادة؟

ويأتي بعد ذلك إتقان النطق باللغة الفرنسية والحديث بها شرط ثان له أهميته وخطره، وهو أن تكون للشخص أظافر طويلة نظيفة لامعة!

وأما الشرط الثالث فأن يعرف ذلك الشخص كيف ينحني، وكيف يرقص، وكيف يجاذب الناس أطراف الحديث السهل!

وأما الشرط الرابع الذي يأتي أخيراً وإن لم يكن آخراً، فعدم الاكتراث بكل شيء، وتمثيل الملل بصورة مستمرة في رشاقة وظرف

وإلى جانب هذه الشروط الأربعة كانت هناك علامات أخرى أستطيع بها أن أحدد فئة الرجل من غير أن أجاذبه الحديث، ومنها طبعاً خطه حين يكتب، وشكل عربته وجياده حين يركب، ونوع سجائره حين يدخن، ولكن أهم من ذلك كله منظر قدميه!

فحينما يكون الحذاء بالي الكعبين أو بارز المقدمين، كنت أعتبر الشخص من الدهماء المغضوب عليهم!

ومن الغريب حقاً أن تلك الفكرة العجيبة سيطرت على تفكيري ونظرتي إلى الناس وأنا في تلك الفترة الخطيرة من عمري، ولعل السبب في اهتمامي بتلك المظاهر، أنني شخصياً كنت أجد نصباً شديداً في المحافظة عليها كي أبدو كما ينبغي، وأني لأفزع الآن كلما تذكرت الوقت الثمين الذي أنفقته في ذلك العمر لتحصيل تلك المزايا المزعومة التي كانت تبدو في نظري هينة، تتأتي ارتجالاً عفو الخاطر لكثيرين ممن أعرفهم وأكبرهم وأحاكيهم، مثل فولودياودبكوف والغالبية الكبرى من معارفنا

كنت أتطلع إلى هؤلاء بحسد شديد وأنا أراهم ينطقون الفرنسية كما ينطقها أبناء السين، ومتى خلوت إلى نفسي رحت أجرب وأجتهد أن أحاكيهم أمام المرآة، وأقلد طريقتهم الرشيقة في الانحناء من غير النظر إلى الشخص الذي انحني له، وأقلد كذلك نظرات وحركات الملل التي تدل على الدلال أكثر مما تدل على الأنفة

وكم من وقت أنفقته في تقليم أظافري وتنظيفها وتلميعها، حتى أني كثيراً ما اقتطعت من لحمي بالمقص وأنا متهمك في تلك العملية

وأما عربتي وجيادي فكنت لا أدري ماذا أصنع كي تبدو كما ينبغي حقاً، وكان يزعجني أن أرى تلك الغاية تتحقق لسواي من غير مجهود ظاهر

وفي ذات مرة تغلبت على حيائي وسألت دبكوف لأني كنت أرى أظافره على الدوام نظيفة أنيقة لامعة رغم طولها المفرط، وأقدمت على سؤاله بعد أن أعيتني الحيل في أظافري العنيدة

– ماذا تفعل كي تحتفظ بمظهر أظافرك أنيقاً هكذا؟

فأجابني دبكوف ببرود:

– إني لم أحاول على ما أذكر في أي يوم من الأيام أن أعتني بأظافري كي أجعلها تبدو بهذا الشكل، ولم يخطر ببالي يوماً أن أظافر أي سيد يمكن أن تبدو بطبيعتها على غير هذا النحو!

وأصابتني هذه الإجابة بجرح عميق، لأني لم أكن أعلم وقتئذ أن الصفة الأولى من صفات من كان كما ينبغي أن يتكتم الفرد منهم مجهوداته المضنية للمحافظة على مظهره كما ينبغي!

واضني ما كان يضنيني أن كوني كما ينبغي لم يكن مستوى للحياة فحسب، بل شرطاً لا غنى عنه للسعادة والمجد وكل طيبات الحياة الدنيا، فكان من المستحيل أن أحترم فناناً مشهوراً، أو عالماً، أو محسناً إلى الجنس البشري ما لم يكن كما ينبغي، ومن كان كما ينبغي يتقدم عندي على الفنان والعالم والمحسن إلى البشر حتى ولو لم يكن وراء مظهره مخبر ذو خطر!

أن من كان كما ينبغي قد يترك لأولئك الأفذاذ رسم الصور وشفاء المرضى وتأليف الكتب وهداية الناس، وقد يثني على عملهم ويقدره حق

قدره، ولكن في شيء من التفاضى عن هبوط مستواهم!؟ فإنه لا يستطيع أن يتفاضى عن الفارق بينه وبينهم ويقف معهم على قدم المساواة، فهم ليسوا كما ينبغي، أما هو فكما ينبغي، وذلك حسبهم وحسبه من فارق عظيم!

بل إني كنت أعتقد أن من كان كما ينبغي لو رزقه الله– أو على الأصح لو رزأه– بأخ أو أخت أو أم أو قريب ليس كما ينبغي، لكان من واجبه أن يعتبر نفسه فوقهم، فلا حيلة في أنهم دونه قدراً وصفة

ولم يكن أكبر ضرر أنزلته بي هذه العقيدة الضارة ضياع وقتي وجهودي الثمينة فحسب جريا وراء تلك الترهات، مع أن هذه الفكرة جعلتني أكره واحتقر تسعة أعشار الجنس البشري من غير مبرر أو شبه مبرر، بل إن الضرر الماحق الذي أصابتني به هذه العقيدة حقاً هو ما استقر في روعي من أن كون الإنسان كما ينبغي فضيلة كافية ومزية وافية شافية تكفل للفتى المكانة الاجتماعية الرفيعة، فهو غني بها عن القيام بأي عمل أو تولي أي منصب عسكري أو مدني أو علمي، فإن يكون كما ينبغي، تلك غاية الغايات التي تتقطع دونها الأعناق، ولا يجوز أن تطلب من ورائها أمنية أو يعقد بعدها رجاء!

إن الجنس البشري كله كان في نظري مجرد قاعدة لتمثال ينصب فوق قمته، وهذا التمثال هو "من هو كما ينبغي"!

والعادة أن كل شخص يستقبل الشباب يجد نفسه في مفترق

الطرق، فعليه أن يختار لنفسه مهنة أو صناعة أو عملاً كي يقوم بدور فعال أو إيجابي في الحياة الاجتماعية، ثم يخصص نفسه للاتجاه الذي وقع عليه اختياره، ولكن هذا السلوك يندر جداً في زمني ذاك أن يقدم عليه من هو كما ينبغي

إن الواحد من هؤلاء كنت تراه ضخماً فخماً، أخاذا براقاً لاذع الرأي، معتداً برأيه، ولو انتقل إلى العالم الآخر وسأله الملائكة أو الزبانية هناك

– من أنت؟ وماذا كان شأنك في الدنيا؟ وماذا صنعت فيها وخلفت بعدك من أثر؟

لما كان جوابه ألا أن يقول:

– كنت هناك رجلاً كما ينبغي!

وكان هذا هو المصير الذي ينتظرني بفضل تلك الفكرة التي سيطرت على نفسي

الجيران

لقد أدهشني دهشة لا مزيد عليها أن أسمع أبي في أول يوم من أيام حلولي بالريف أن يصف آل ابيفانوف بأنهم من كرام الناس وخيارهم، وكانت غاية دهشتي لأنه ذهب لزيارتهم في بيتهم

وسر هذه الدهشة أنه كانت بيننا وبين آل ابيفانوف منذ زمن طويل

قضية كبيرة تنظرها المحاكم، وكثيراً ما كنت أسمع والدي قبل ذلك وأنا طفل يثور ويلعن ويسخط بسبب تلك القضية على آل ابيفانوفو أجدادهم، ويتمنى أن يحميه أحد من ظلمهم وشرهم، وكثيراً ما سمعت ياكوف أيضاً يسميهم أعداءنا، ويصفهم بأنهم من شرار الناس، بل إني أذكر جيداً أن والدتي كانت تحذر الجميع من ذكر أي شيء عن هؤلاء الناس في بيتها أو على مسمع منها

وتأسيساً على هذه المعلومات والذكريات كونت لنفسي في مدة طفولتي فكرة واضحة جداً عن آل ابيفانوف، وبمقتضى هذه الفكرة ثبت عندي أنهم أعداؤنا، وأنهم على أهبة الاستعداد لحز رقبة والدي أو خنقه، بل وأكثر من هذا لا يتورعون عن قتل أولاده لو أنهم وضعوا أيديهم عليهم

وبلغ من تسلط هذه الفكرة الراسخة على ذهني أنني عندما رأيت فاسليناابيفانوفنا، الملقبة بالقلمنكية الحسناء، ساهرة بجوار فراش أمي عام وفاتها، وجدت عناء شديداً في تصديق ما قيل لي من أنها تنتمي إلى هذه الأسرة الشريرة التي تناصبنا العداء، وظللت على اعتقادي القديم في إساءة الظن وبغض هؤلاء القوم

ومع إني التقيت بهذه الأسرة كثيراً في غصون ذلك الصيف، إلا أني بقيت على سوء الظن المفرط بالأسرة كلها، والواقع أن تلك الأسرة كانت تتكون من الأم وهي أرملة في الخمسين من عمرها بيد أنها لم تزل محتفظة بنضارتها ومرحها، ومن ابنتها الحسناء فاسليفنا، ومن ابن متعثر

اللسان هو بيوترفاسليفتشابيفانوف، وهو ملازم متقاعد أعزب جاد في سلوكه

أما الأم أنا ديمتريفناابيفانوفنا فقد ظلت أكثر من عشرين سنة منفصلة عن زوجها قبل وفاته، وقضت هذه السنوات الطويلة مقيمة في سان بطرسبرج أحياناً لدى أقاربها، ومقيمة معظم الوقت في قريتها ميتشكي التي كانت تبعد مقدار ثلاثة فراسخ عن ضيعتنا

وكانت الأقاويل المذهلة الفظيعة تروي في الجيرة وتتردد عن أسلوب حياتها، حتى أن الإمبراطورة الداعرة مسالينا كانت تعتبر طفلة بريئة متى قورنت بها! وعلى هذا الأساس كانت أمي تحرص على عدم ذكر اسم آل ابيفانوف ولاسيما ابيفانوفا في بيتها

وإننا إذا نظرنا إلى الأمر نظرة جدية واقعية مجردة من السخرية أو التهكم لوجدنا أنه من المستحيل أن نصدق جزءاً ولو معشار ما كان يقال عن فضائحها ومباذلها الأسطورية، فمن شأن الريف أن ينهش أعراض المقيمين فيه ويتقول عليهم بما لا يخطر على عقل

وقد عرفت أن ديمتريفنا كان لديها في البيت مدير لأعمالها الزراعية اسمه متيوشكا، وكان هذا الشاب مرجل الشعر بالمعاجين ويرتدي ثياباً شركسية، ويقف دائماً وراء مقعد أنا ديمتريفنا حين تجلس إلى مائدة العشاء، فكانت تدعو ضيوفها باللغة الفرنسية في حضوره كي يتأملوا بإعجاب عينيه الجميلتين وفمه الجذاب! ومع ذلك أحسست أن أقاويل الناس ليست على أساس صحيح، ويظهر أنها في السنوات العشر

الأخيرة، أي منذ دعت ابنها البار بيوتر لترك خدمة الجيش وملازمتها، غيرت تمام التغيير أسلوب حياتها وكانت لذتها كلها في التطلع إلى الجمال والإعجاب به!

وضيعة أنا ديمتريفناابيفانوفنا صغيرة الحجم، عدد فلاحيها أرقاء الأرض لا يزيد كثيراً عن مائة عبد، وكانت نفقاتها في حياتها الطروب المرحة باهظة، حتى استغرقت الرهون والديون الضيعة منذ عشر سنوات وصار من المنتظر طرح الضيعة في المزاد العلني بين لحظة وأخرى، لأن ذلك الإجراء أصبح ولا مناص منه

وقد حاول ابنها بيوترفاسلفتش أن يصلح الأمور قدر الاستطاعة، ومع أنه كان مرضياً عنه جداً في الجيش وينتظر له مستقبل باهر فيه، إلا أنه لم يتردد في الاستجابة لنداء أمه وترك الخدمة وعاد إلى القرية ليحاول إنقاذ أمه من ورطتها المالية المدمرة

ومع أن سحنبيوترفاسلفتش عادية لا تدل على ذكاء، وهو خجول مضطرب في حركاته، متعثر اللسان، إلا أنه كان رجل مبادئ، قوي العزيمة واضح الفكر، له حاسة عملية يقظة وفطنة إدارية ومالية متوقدة، فعقد قروضاً صغيرة، وأحسن الإشراف على الزراعة، وباع الجياد والعربات التي تتطلب نفقات باهظة، ولم يشجع الزوار على الحضور للإقامة فترات طويلة كما تعودوا أن يفعلوا، وأحسن القيام على حفر المصارف وبيع أشجار الغابة من غير وسطاء فنجح في إنقاذ الضيعة من البيع، ونذر ألا يخلع ثياب المزارعين إلى أن يفي بجميع الديون

المتراكمة، ونذر كذلك ألا يركب إلا ركائب الفلاحين التي تجرها البغال أو خيول الحرث

وحاول بيوتر أن يفرض هذه الحياة الرواقية المتطرفة على أفراد الأسرة جميعاً ويطالبهم بالتقشف، ولكن إجلاله لوالدته حال بينه وبين مراده، لأنه كان يرى ذلك الإجلال واجبه الأول

وفي قاعة الاستقبال كان يتلعثم ويظهر التذلل الشديد نحو أمه، ويلبي أتفه رغباتها، ويقرع جميع من لا ينفذون إرادة أنا ديمتريفنا، ولكنه حين يذهب إلى مكتبه كان يستأدى الجميع حساباً عسيراً جداً عن أتفه النفقات، ولو كان ذلك تقديم بطة على المائدة من غير أمر صريح منه، أو ذهاب الفتيات الفلاحات إلى الغابة لإحضار الزهور البرية لوالدته بدلاً من العمل في الحقل

وتمكن بيوترفاسلفتش من الوفاء بجميع الديون في مدى ثلاثة أعوام، وسافر إلى موسكو لشطب الرهون، ثم عاد من هناك في ثياب أنيقة مما يلبسه السادة، ولكنه على الرغم من ازدهار الأحوال ظل يتبع في حياته ذلك الأسلوب المتقشف الذي يظهر أنه تعوده وصار يفخر به أمام أفراد أسرته وأمام الغرباء، حتى أنه كان يقول بطريقته المتلعثمة:

—من أراد منكم أن يراني حقاً على صورتي الواقعية سيسره أن يراني في سترتي المصنوعة من فراء الأغنام ويأكل معي في الحقل من مأكلي الخشن، فإني أكل من طعام الفلاحين!

وكان ينطق كل حرف من هذه الكلمات بافتخار شديد، ومرجع ذلك إلى شعوره بأنه ضحى براحته ورفاهيته ومستقبله في سبيل أمه، فاستنقذ الضيعة، وهو في الوقت نفسه يعرض بسلوك أعضاء الأسرة الآخرين بل وبغيره من الملاك الذين لا يقدرون على شيء من ذلك

أما والدته وأخته فكانت سجاياهما مختلفة تمام الاختلاف عن سجاياه وطباعه، وفي الوقت نفسه تختلف طباع الأم عن طباع الابنة من وجوه شتى، فالأم مرحة في المجتمعات لا تفارقها البشاشة وتبتهج لكل ما هو سار مطرب، ويفرحها على الخصوص أن ترى الشباب يمرحون، ولديها قدرة عظمى على مشاركة هؤلاء الشبان الأحداث والفتيات الصغيرات في مسراتهم البريئة الخلية البال، وهي آية على طيبة القلب

أما ابنتها فاسليفنا فكانت على عكسها أميل للجد، أو على الأصح من ذوات الطبائع الحالمة مع ترفع مشوب بعدم الاكتراث، شأن الحسان اللواتي لم يتزوجن، وعندما كانت تحاول المرح، كان مرحها يبدو عجيباً كأنما هي تضحك على نفسها أو من نفسها، أو ممن تتحدث إليهم، مع أنها لا ترمي إلى شيء من ذلك، وكثيراً ما أدهشني أن أسمعها تقول عبارات غريبة لم أستطع أن أفهم تأويلها ولا ماذا تعني بها، من قبيل:

–طبعاً أنا جميلة جداً، طبعاً الجميع يعشقونني، إلخ

وكانت أنا ديمتريفنا والدتها نشطة دائمة الحركة، مولعة بتدبير المنزل والإشراف على الحديقة ورعاية الأزهار وطيور الكنار وسائر الأشياء الجميلة، ولم تكن الحديقة أو حجرات الدار شديدة الاتساع

والفخامة، ولكن كل شيء كان جميلاً أنيقاً منسقاً يوحى بالسرور والتفتح للحياة، وكانت أحب المعزوفات إليها هي الفالس والبولكا

والحقيقة أن هذه السيدة كانت بقامتها النحيلة ووجها المشرق ويديها الصغيرتين الجميلتين وأناقة هندامها أشبه بالدمى، وكل شيء في حديقتها وبيتها شبيه مثلها بالدمى، ولم يكن يغير من هذا الأثر سوى ظهور العروق الزرقاء النافرة في يديها الصغيرتين

أما ابنتها فاسليفنا فكانت على عكسها لا تكاد تقوم بعمل من الأعمال، فهي لا تهتم بالبيت أو الحديقة أو الأزهار فحسب، بل ولا تكاد تهتم أيضاً بمظهرها، فكانت تضطر كلما حضر الضيوف إلى الدار إلى الاختفاء كي ترتدي ثوباً مناسباً، ولكن ما أن تعود إلى الحجرة وقد ارتدت ثيابها، حتى تبدو جميلة جمالاً خارقاً، فيما عدا نظرة عينيها الباردة التي لا تتغير، وابتسامتها التي تكاد تكون ابتسامة منحوتة على وجه تمثال جميل!

إن ملامحها المتناسقة في دقة صارمة، ومحياها الجميل، وقامتها المهيبة كأنها تقول لك على الدوام:

– لك أن تنظر إلي، ما دام ذلك يطيب لك

وعلى الرغم من مرح آلام وشرود الابنة وعدم اكتراثها، كان هناك شيء خفي يوحي إليك أن الأم لم تحب في حياتها السابقة أو الراهنة سوى الجمال والمرح، وأن فاسليفنا ابنتها من تلك النفوس التي متى أحبت مرة في العمر ضحت حياتها كلها في سبيل ذلك المحبوب الفريد.

الفصل الرابع

زواج أبي

كان أبي في الثامنة والأربعين من عمره عندما أتخذ فاسليفنا ابيفانوفنا زوجة ثانية له

وفي اعتقادي، على حد تصوري، أن والدي عندما جاء بمفرده في الربيع إلى الريف مع الفتيات كان في حالة نفسية من حالات السعادة العصبية التي تميل بصاحبها إلى الألفة والمخالطة، وهي حالة تنتاب المقامرين عادة عندما يكفون عن المقامرة بعد حصولهم على أرباح ضخمة منها، فشعر أنه لم يزل في خزانة القدر له رصيد كبير من حسن الحظ لم يستنفذه بعد، وما دام لا يريد أن يبعثره في المقامرة، فمن حقه أن يستغله في وجه آخر من وجوه التوفيق في الحياة بصورة عامة

وفضلاً عن ذلك كان الوقت مناسباً لإذكاء العواطف، فهذه من صفات فصل الربيع الملازمة، وكان تحت يده مبلغ طائل من المال على غير انتظار، وهو في وحدة تامة تبعث على الوحشة والسأم

وإني أتصوره يتباحث مع وكيله ياكوف ويتذاكران القضية التي تقادم عليها العهد بينه وبين آل ابيفانوف، فاستحضر في ذهنه صورة الحسناء فاسليفنا التي لم يرها منذ أمد طويل، فقال لياكوف:

–ما رأيك يا ياكوف؟ إني أرى من الأفضل حسماً لهذا النزاع المزعج أن نترك هذه القطعة المنكودة من الأرض التي كانت سبب الخصومة تذهب إلى الشيطان، ما رأيك؟ هه؟

وأتصور أيضاً أصابع ياكوف وهي تتلوى في تشنج وراء ظهره علامة على المعارضة، ثم محاولته إثبات أن الحق في هذه القضية بجانبنا، بيد أن أبي أمر بإعداد العربة على الفور، وارتدى حلته الزيتية اللون التي فصله على آخر طراز، ثم رجل البقية الباقية من شعر رأسه، وشعشع منديله بالعطر النفاذ، فداخله السرور والإعجاب بنفسه لاعتقاده بأنه على وشك القيام بتصرف نبيل ينم عن الارستقراطية وترفعها، وأيضاً على الخصوص أملا منه في أن يرى امرأة جميلة

وهكذا ذهب أبي لزيارة جيرانه

وقد علمت أن أبي في هذه الزيارة الأولى لم يقابل بيوترفاسليفتش الضابط المتقاعد لأنه كان على عادته يقوم بالإشراف على الأعمال الزراعية في حقوله، فقضى ساعة أو ساعتين في صحبة السيدتين

وأستطيع أن أتصوره يتدفق ظرفاً وتودداً حتى سحرهما وهو يدق الأرض بنعليه الرقيقين ويهمس في نعومة ويرمقهما بنظراته الغزلة، وأستطيع أن أتصور أيضاً السيدة الضئيلة المرحة العجوز وقد داخلها ميل مفاجئ إليه، أما ابنتها الحسناء الفاترة لطبع فدبت فيها الانفعالات الجياشة بصورة لم تألفها

وعندما ذهبت الخادمة تجري بأقصى سرعتها كي تخبر بيوتر فاسليفتش أن جاره الكبير حضر بنفسه للزيارة، فإني أتخيله يجيبها بغضب:

–وماذا في ذلك؟ ولماذا جاء؟

ولكن في الوقت نفسه اضطر لذلك السبب أن يعود إلى البيت، في تباطؤ، ولعله عرج في الطريق على مكتبه ليرتدي عمداً معطفه القديم القذر، وليرسل إلى الطباخ يحذره مهما كانت الأحوال أن يضيف شيئاً إلى الطعام المعد لغداء ذلك اليوم، حتى ولو أمرته السيدتان بذلك

وقد رأيت أبي كثيراً فيما بعد في صحبة آل ابيفانوف، وفي صحبة بيوتر أيضاً، ولذا أستطيع أن أكون فكرة حية عن اللقاء الأول بينهما، وأني أتخيل الأمر على هذا الوجه: فعلى الرغم من أن والدي عرض عليه إنهاء القضية بالطريق الودي، إلا أن بيوترفاسليفتش لم يقابل ذلك العرض بالبشر بل بالتبرم والضيق، فهو رجل قد ضحى بمستقبل حياته كله في سبيل أمه، أما والدي فلم يضح بشيء في عمره كله في سبيل أحد

وأخال أبي تجاهل تجهم بيوترفاسليفتش، واستطرد في إشاعة المرح والدعابات، ولعله عابث بيوترفاسليفتشمتندراً، ولاشك أن ذلك لم يرق لبيوتر بيد أنه اضطر لمجاراته على مضض

ولسبب ما كان والدي على سجيته المألوفة في المزاح ينادي

بيوترفاسليفتش بلقب الكولونيل، ومع أن بيوتر كان يحمر حرجاً وضيقاً ويتعلثم لسانه أكثر من مألوفه في التلعثم، ومع أنني سمعته يعترض ذات مرة في حضوري على تلك التسمية مذكراً أبي بأنه:

– ليس كو .... لو... نيلا، بل ملا... زم!

إلا أن أبي عاد إلى مناداته بالكولونيل بعد أقل من خمس دقائق!

وأخبرتني ليوبوشكا أنه قبل وصولنا إلى القرية أنا وأخي كانت هناك مقابلات يومية مع آل ابيفانوف وتوثقت العلاقة كثيراً، وتفنن أبي على عادته في تنظيم جميع أموره تنظيماً فنياً يتصف بالأصالة والمرح والدعابة والأناقة، فأقام حفلات صيد في البر وفي النهر، وأقام في الليل ألعاباً نارية باهظة التكاليف حضرها آل ابيفانوف، وأكدت لي ليوبا أن الأمور كانت حرية أن تكون ألطف، والمناسبات أظرف وأمتع لولا وجود ذلك العتل بيوترفاسليفتش الذي كان يقطب وجهه دائماً ويتلعثم ويفسد بانقلاب سحنته كل شيء

وبعد وصولنا أنا وأخي حضر آل ابيفانوف لزيارتنا مرتين فقط، وذهبنا نحن لزيارتهم مرة واحدة، وبعد الاحتفال بعيد القديس بطرس وهو العيد الخاص بأبي، وبمناسبته حضر آل ابيفانوف مع كثيرين غيرهم للتهنئة، انقطعت علاقتنا كل الانقطاع بآل ابيفانوف، وصار أبي يتوجه لزيارتهم بمفرده

وخلال الفترة القصيرة التي أتيح لي فيها أن أرى والدتي وفاسليفنا التي تدللها أمها فتسميها دونشكا، لاحظت أن أبي كان سعيداً جداً يفيض بالبشر على الحالة التي وجدته بها يوم وصولي، فهو يتدفق شباباً وسروراً ويفيض بالحياة والسعادة، حتى أن سعادته كانت تغمر جميع من حوله فيشاركونه إياها مندفعين مع تيارها

وعندما تكون دونشكا في حجرة من الحجرات لا يمكن أن يغادرها أبي ولو خطوة واحدة، ويظل يمطرها بالتحيات والثناء العذب الرقيق حتى أنني كنت أشعر بالخجل له، لأنه كان يحملق فيها طول الوقت صامتاً، أو يسعل ثم يهمس في أذنها باسما، بيد أنه كان يفعل ذلك كله بطريقته الهازلة الخاصة به حتى وهو يعالج أشد الموضوعات جدية وخطورة

أما دونشكافاسليفنا فبدا لي أن سعادة أبي سرت إليها بطريق العدوى، فتوهجت عيناها الزرقاوان الواسعتان توهجاً يكاد يكون مستمراً، باستثناء تلك اللحظات التي كانت تنتابها فيها فجأة نوبات من الحياء حتى أنني كنت أتألم مشاركة لها في الألم، لأني كثيراً ما أعاني من ذلك الشعور، فكنت أتأذى عندئذ من النظر إليها، ويلوح أنها في تلك اللحظات تشعر بالوجل والخوف من كل نظرة ومن كل حركة، ويخيل إليها أن كل إنسان يتطلع إليها ولا يفكر إلا فيها ويستنكر كل شيء يتصل بها، فتنظر إلى الجميع نظرات خجلي، والحمرة والشحوب يتقاسمان محياها مرة بعد مرة، ثم تشرع في الكلام بجسارة وبصوت مرتفع، فلا تقول إلا لغواً في معظم الأحيان، وتشعر بتفاهة ما تقول،

وتشعر في الوقت نفسه أن الجميع بما فيهم أبي كانوا منصتين لكلامها، فيزداد خجلها أضعافاً

وفي تلك الأوقات كان أبي لا يفطن إلى تفاهة الكلام، ويستمر في سعاله العصبي الخفيف، وهو يكاد يأكلها بعينيه من فرط السرور والنشوة

ولاحظت أنه على الرغم من إصابة دونشكا بنوبات الخجل من غير مناسبة أو سبب أحياناً، إلا أن هذه النوبات كانت تنتابها دائماً على أثر ذكر أية امرأة شابة جميلة أمام أبي، ولاحظت كذلك أنها أصبحت تستعمل اصطلاحات أبي الخاصة به في الكلام والدعابة، مما كان حرياً أن يدلني على نوع العلاقة التي نشأت بين أبي وفاسليفنا، لو أن مكان أبي أي رجل آخر، أو لو كنت أكبر سناً في ذلك الحين. ولذا لم يخامرني الريب في شيء، حتى عندما تلقى أبي في حضوري خطاباً من بيوترفاسليفتش، وظهر الاستياء الشديد والكدر على وجهه بعد قراءته، ثم قطع زياراته إلى دار آل ابيفانوف حتى نهاية شهر أغسطس

وفي نهاية شهر أغسطس عاد أبي إلى استئناف زياراته لجيراننا، وفي اليوم السابق لرحيلي أنا وفولوديا إلى موسكو أخبرنا أنه بسبيل الزواج من فاسليفناابيفانوفنا

كيف تلقينا النبأ؟

علم كل من في البيت النبأ قبل إعلانه بيوم، وأخذوا جميعاً

يتناقشون فيه، فأما ميمي فأنها لزمت حجرتها طول النهار وظلت تبكي، وجلست كاتنكا معها فلم تخرج إلا لتناول الغداء وعلى محياها آيات الامتعاض التي لا شك أنها استعارتها من أمها، وأما ليوبا فإنها على العكس كانت مرحة للغاية، وقالت ونحن على مائدة الغداء أنها تعرف سراً بديعاً ولكنها لن تفضي به لأحد، فقال فولوديا:

– ليس في سرك ما يجيز لك وصفه هذا الوصف المسرف

وكان أخي لا يشارك ليوبا رضاها عن الموضوع، ولم يكفه ما قال تلميحاً، فاستطرد يقول بصراحة:

– بل إن الأمر بالعكس تماماً، ولو كانت لديك ذرة من التفكير السليم الجاد لأدركت أنه شيء يؤسف له جداً، بلاء كبير!

فحملقت ليوبا في أخيها هشة فائقة ولم تقل شيئاً

وبعد الغداء أراد فولوديا أن يتأبط ذراعي، ولكنه خشي فيما يظهر أن يبدو ذلك السلوك منه فيفسر على أنه تميع عاطفي، فاكتفى بأن لمس مرفقي وأومأ لي نحو البهو، فتبعته إلى هناك

ولما أطمأن إلى أننا هناك وحدنا قال لي:

– أتعرف السر الذي أشارت إليه ليوبا؟

وكنا قلما نتحدث أنا وفولوديا عن شيء وجهاً لوجه، ولاسيما في الأمور الجدية، لأنه لم يكن قبل ذلك يعتبرني أهلاً لهذا، ولذا شعر كلانا بشيء من الارتباك والحرج، بيد أنه ثبت نظراته في عيني جاداً كأنه يقول:

– ليس هناك ما يستدعي هذا الفزع، ولكننا إخوان قبل كل شيء ولذا ينبغي أن نتشاور معاً في أمور الأسرة ذات الخطر

وأدركت مراده فهدأت نفسي، واستطرد يقول:

– والدنا بسبيل الزواج من ابيقانوفنا، أتعلم هذا؟

فأومأت برأسي أن نعم، لأني كنت قد سمعت بالنبأ، فقال:

– ليس هذا مستساغاً

– لماذا؟

فحملق فولوديا في وجهي وقال بارتباك وإنكار:

– أتقول لماذا؟ طبعاً سيكون من محاسن التوفيق أن ننادي يا خال هذا المتلعثم، الكولونيل الفاشل، وأن يصبح من ذوي قربانا بقي أفراد الأسرة الميمونة! أجل أنها تبدو الآن طيبة رحيمة ولا بأس بها، ولكن من ذا الذي يدري إلى أي حال ستنقلب؟ وتذكر أن الأمر إذا كان لا يعنينا كثيراً أنا وأنت، أن ليوبا يجب أن تظهر في المجتمعات بعد زمن قريب،

وهذا ليس مستحباً جداً عندما يرى الناس لها زوجة أب من هذا الطراز لا تحسن الكلام باللغة الفرنسية تماماً، ثم أي تهذيب ذلك الذي ستلقنه إياها؟! أني أرى أن هذه المرأة عثرة في طريقنا وطريق أختنا، وغير جديرة بأبينا

وتعجبت جداً لسماع فولوديا ينتقد اختيار أبيه بهذا الهدوء والثبات حتى وقع في روعي أنه محق، وسألته:

—ولماذا يقدم أبي على الزواج؟

—إنها قصة عجيبة، والله أعلم بالسبب الحقيقي، وكل ما أعلمه شخصياً أن بيوترفاسليفتش أخاها أقنعه بالزواج منها وطالبه بذلك، وكان أبي غير راغب ثم راقت له المسألة بدافع من النخوة على نحو ما، إنها قصة عجيبة حقاً وقد بدأت الآن فقط على ضوئها أفهم أبي، وأراه رجلاً ممتازاً جداً طيب القلب ذكياً، بيد أنه نزق متقلب، وذلك يدعو للعجب حقاً! إنه لا يستطيع أن ينظر إلى امرأة وهو متمالك جاشه، وأنت لا شك تعلم أنه ما من امرأة تعرف عليها إلا ووقع في هواها، حتى ميمي!

—ماذا تعني؟

—لقد اكتشفت أخيراً أنه كان يحب ميمي عندما كانت صغيرة وكتب فيها شعراً كان يرسله إليها، بل وكانت بينهما أشياء، ولم تزل ميمي تعاني من عواقب هذه العلاقة إلى يومنا هذا!

ثم انطلق فولوديا ضاحكاً، فقلت له في دهشة:

– لا يمكن أن يكون الأمر على هذا النحو!

فاستطرد فولوديا وقد عاد إلى الجد، وشرع يتكلم فجأة باللغة الفرنسية:

– ولباب المسألة كلها أن هذا الزواج سيزعج ويؤذي جميع أقاربنا! ثم أنها حتماً ستنجب أطفالاً...

ووجدت فولوديا يتكلم بحصافة أذهلتني فلم أدر ماذا أقول، وفي هذه اللحظة اقتربت منا ليوبا وسألت ووجها بفيض حبوراً:

– إذن كنت تعلم؟

فأجاب فولوديا قائلاً:

– أجل، ولكني في دهشة من أمرك يا ليوبا، فأنت قد تجاوزت سن الطفولة، فكيف يمكن أن تشعري بالسرور لأن والدنا بسبيل الزواج من هذه النفاية المرذولة؟

فظهر الجد على وجه ليوبا فجأة وقالت:

– يا فولوديا! أتقول أنها نفاية مرذولة؟ كيف تجسر أن تقول هذا عن فاسليفنا؟ وما دام أبي بسبيل الزواج منها، فهي لا يمكن أن تكون نفاية مرذولة!

– هذا مجرد تعبير، ومع ذلك ...

فقاطعته ليوبا ثائرة:

– لا مع ذلك هناك! إنك لم تسمعني في يوم من الأيام أقول عن الفتاة التي تحبها أنها نفاية مرذولة، فكيف تطلق هذا الوصف على والدنا وعلى امرأة ممتازة؟ لا تلق هذا على مسامعي حتى ولو كنت أخي الأكبر!

– أليس لي أن أعبر عن رأيي في ...

فقاطعته ليوبا مرة أخرى صائحة:

– كلا، ليس في أب كابينا! قد تفعل ذلك ميمي، أما أنت أخي فولوديا فلا ثم لا

فقال فولوديا بازدراء:

– إنك لا تفقهين شيئاً، ليس هذا بعد في استطاعتك، اسمعي: هل ترين جميلاً ومستساغاً أن هذه الابيفانوفنا، دونشكا! تحتل المكان الذي كانت تشغله أمك الراحلة؟

فلزمت ليوبا الصمت دقيقة، ثم تحدرت الدموع فجأة من عينيها، وقالت:

– لقد كنت أعرفك مغروراً، ولكني لم أكن أعرفك شريراً هكذا!

ثم غادرتنا فقال فولوديا وهو يقلب سحنته بصورة مضحكة:

– هذا جزاء من يحاول مجادلتهن بالمنطق!

فكأنه يلوم نفسه لأنه هبط سهوا إلى مجاذبة ليوبا الحديث!

وفي اليوم التالي كان الجو سيئاً، ولم ينزل أبي ولا الفتيات لتناول الشاي عندما دخلت حجرة الاستقبال، وكان المطر قد انهمر طول الليل، ولكن السحب التي أفرغت ما في جوفها ظلت تلبد السماء وتحجب قرص الشمس الذي ارتفع في الأفق مؤذنا بحلول الضحى، وكانت الريح تهب رطبة عنيفة باردة، ومن الباب المفضي إلى الحديقة رأيت المطر متجمعا على السلم، والهواء يعبث بالباب المفتوح ويحركه جيئة وذهاباً، وأغصان السرو العالية البيضاء تتناوح في حفيف تحمله الرياح كأنه موسيقى واجمة.

وكانت أفكاري مشغولة بزواج أبي الثاني من وجهة النظر التي أبداها فولوديا، ورأيت مستقبل أختي ومستقبلنا، بل ومستقبل أبي، لا يبشر بالخير، وأزعجني جداً أن امرأة غريبة دخيلة، ولاسيما لأنها شابة، تحتل مكانا لا حق لها فيه، ومكان من؟!

أنها سيدة شابة عادية جداً، فكيف تحتل مكان أمي الراحلة؟! وثقل قلبي بالهم، وتراءى أبي في نظري آثما يجترح أمراً عظيماً.

وفي هذه اللحظة سمعت صوته وصوت فولوديا يتحدثان في حجرة أخرى، ولم أشأ أن أرى أبي في تلك اللحظة، فخرجت من الباب إلى

الحديقة، وإذا ليوبا تلحق بي وتخبرني أن أبي يطلبني.

وعدت إلى حجرة الاستقبال فوجدته واقفا وقد أرسى إحدى يديه على البيانو وهو ينظر إلى جهتي بصبر نافذ، ولكن في الوقت عينه بزهو الانتصار، وكانت إمارات الشباب والسعادة التي لاحظتها على محياه طوال تلك الفترة قد فارقته، فبدا مضطرباً.

ورأيت فولوديا يتجول في القاعة وفي يده غليونه، فاتجهت نحو أبي وألقيت عليه تحية الصباح، فقال بحزم وهو يرفع رأسه ويخرج الكلام من فمه بتلك اللهجة السريعة التي يستخدمها المرء للإفضاء بأنباء لا محل للشك في غضاضتها، إلا أنه لا حيلة في تداركها.

– أنتما تعلمان إذن– فيما اعتقد– أيها الصديقان أني بسبيل الزواج من فاسليفناأبيفانوفنا...

ولزم الصمت برهة ثم استطرد:

– ولم تخامرني الرغبة إطلاقا في الزواج بعد أمكما، ولكن...

وصمت برهة أخرى ثم قال:

– ولكن هذه إرادة القدر، ودونشكا فتاة لطيفة عطوف لم تعد في باكورة الشباب، وفي مرجوي أن تحباها، أما هي فتحبكما من صميم قلبها فهي امرأة صالحة طيبة القلب، والآن...

ثم اتجه إلينا بوجهه حتى لا يتيح لنا فرصة مقاطعته واستطرد بسرعة:

– آن لكما أن ترحلا من هنا، أما أنا فسأبقى إلى بداية العام الجديد، وعندئذ سآتي إلى موسكو...

وتردد مرة أخرى برهة قصيرة ثم جمع رأيه وقال:

– ومعي زوجتي وليوبا!

وآلمني جداً أن أرى أبي يبدو أمامنا نحن أبنيه خجولا متأثما، فخطوت مقتربا منه، أما فولوديا فظل يدخن غليونه ويذرع القاعة مطأطأ الرأس، وقال أبي مختتما، وقد أحمر وجهه وأخذ يسعل سعاله العصبي:

– وهذا أيها الصديقان ما قرره والدكما العجوز.

ثم شد على يد فولوديا ويدي، ولمحت الدموع في عينيه وهو يتكلم، ولاحظت أن اليد التي مدها إلى فولوديا الذي كان في تلك اللحظة في أقصى الغرفة كانت ترتعد قليلا... فحزت في نفسي رجفة تلك اليد، وخطر لي خاطر غريب أزعجني جداً: إذ تذكرت أن هذا الأب كان في الجيش حتى سنة ١٨١٢ وكان ضابطاً شجاعاً مشهوداً له بالبسالة...

وأبقيت يده الكبيرة القوية في يدي، وأهويت عليها أقبلها، فشد

على يدي بقوة، وأرسلت عيناه دمعهما، وانقض فجأة على رأس ليوبا الفاحم بكلتا يديه ثم انكب عليها يقبل عينيها.

وتظاهر فولوديا بسقوط غليونه، ثم انحنى على الأرض فمسح على عينيه بقبضة يده ثم غادر الحجرة بسرعة، مجتهدا ألا يفطن أحد لخروجه.

الجامعة

كان المقرر أن يتم القران في مدى أسبوعين، بيد أن محاضرتنا في الجامعة كانت قد بدأت، فرحلت أنا وفولوديا عائدين إلى موسكو في بداية شهر سبتمبر، وكان آل نخليودوف قد عادوا كذلك من مقرهم الريفي، وكنت قد وعدت ديمتري كما وعدني أن نتراسل في مدة الصيف، وبطبيعة الحال لم نتراسل ولو مرة واحدة!

وبمجرد وصولي حضر ديمتري لزيارتي، وقررنا في ذلك اليوم أن نذهب في اليوم التالي إلى الجامعة، كي أحضر أولى محاضراتي فيها.

وكان اليوم التالي يوماً صحواً ساطع الشمس.

وما أن دخلت المدرج حتى شعرت أن شخصيتي تلاشت في ذلك الحشد من الشبان المرحين الذين يتحركون في جلبة شديدة مخترقين الأبواب والدهاليز في ضوء الشمس الساطعة، وكان إحساسي بأني عضو في هذه الجماعة الكبيرة سببا في ارتياحي وسروري، بيد أن نفراً قليلاً

جداً من جميع هؤلاء الأفراد من كنت أعرفهم من قبل، وكانت هذه المعرفة محدودة بإيماءة من الرأس وتحية عابرة بكلم أو كلمتين. ولكن جميع من حولي كانوا يتصافحون بالأيدي ويتبادلون الحديث وألفاظ الصداقة، والابتسام، والمداعبة، من غير تكلف أو احتشام، فداخلني على الفور الإحساس بتلك الرابطة التي تربط هذه الجماعة من الشباب على اختلاف أعضائها، وأدركت في أسف وأسى أن هذه الرابطة فاتتني على نحو ما بسبب دراستي الفردية المنزلية، ألا أن ذلك الأسى لم يكن إلا إحساساً وقتياً عابراً لم يلبث أن انقضى، فأنني سرعان ما استشعرت الارتباك والخجل من هذه المخالطة، ففطنت على الفور إلى حسن حظي لأن ظروفي جنبتني الحياة في تلك المجتمعات الصاخبة من قبل، وقررت على الأثر أنه ينبغي أن تكون لي دائرة صغيرة خاصة من خيار الشبان لا آلف أحداً خارجها.

واتخذت مجلسي في الصف الثالث حيث جلس الكونت ب، والبارون ز، والأمير ر، وايفين، وشبان آخرون من طلبة الفرقة لم أكن أعرف منهم سوى أيفين والكونت.

ومن الطريقة التي رمقني بها هؤلاء السادة جيراني الذين لا أعرفهم، أحسست أنني لست من قبيلهم، كما أنهم ليسوا من قبيلي، وشرعت أوجه انتباهي لملاحظة لك ما يجري حولي، فرأيت سمينوف بشعره الأشيب المشعث وأسنانه البيضاء ومعطفه المفكوك الأزرار، جالسا غير بعيد مني، متكئا على مرفقيه، يعض قلمه، أما الطالب الذي كان ترتيبه

على رأس الناجحين في امتحان القبول فقد رأيته جالسا في الصف الأول، وعنقه لم يزل ملفوفا في الوشاح الأسود، يعبث بمفتاح ساعة من الفضة في قماش سترته اللامعة، أما أيكونبن الذي جاهد جهاداً عنيفاً كي يدخل الجامعة، فرأيته في قمة المدرج من الخلف في أعلى صف، وقد ارتدى بنطلونا أزرق يخفي حذاءه إخفاء تاما، وسمعته يقهقه ضاحكا ويصيح متهللا لأنه جالس فوق جبل البرناسوس.

وبعد قليل دخل أيلنكا، فأدهشني أن يحييني لا ببرود فحسب، بل وبتحد كأنه يريد أن يذكرني تذكيراً خاصاً بأننا جميعا في هذا المكان على قدم المساواة، ولذا جلس أمامي مباشرة ثم رفع ساقيه النحيفتين فوق المقعد بطريقة مستهترة أعتقد أنه تعمدها من أجلي، وجعل يثرثر مع طالب آخر، وهو يرمقني بين الحين والحين بنظرات عرضية.

وأما مجموعة أيفين الجالسة بجواري فكانوا يتكلمون الفرنسية، ولا شك أن هؤلاء السادة كانوا أغبياء بدرجة مذهلة، فكل كلمة نطقوا بها في حديثهم ووصلت إلى أذني، لم تكن خاطئة فحسب، ولا هذيانا فارغا فحسب، بل لم تكن من اللغة الفرنسية إطلاقا.

وبدأ صدري يضيق بين جهل هؤلاء السادة وبين السلوك غير اللائق الذي بدا من أقوال وتصرفات سمينوفوأيلنكا وغيرهما، وصار واضحاً لدى أني لا أنتمي لأية مجموعة من هؤلاء، ولشعوري بالعزلة وعجزي عن تكوين صداقات في تلك البيئة، بدأت أضيق بها.

ورأيت طالبا في الصف الذي أمامي مباشرة يقرض أظافره، وجميع أنامله محمرة من إدمانه لتلك العادة، وهي عادة أتقزز منها جداً حتى أنني ابتعدت عن الموضع الذي يجلس فيه، وكان هذا اليوم الأول في الجامعة فيما أذكر يوما أسيفا تألمت له في أعماق سريرتي.

ولما دخل الأستاذ فشت الهمهمة بين الجميع ثم ساد الصمت، وأذكر أن سخريتي ونظرتي المستهزئة إلى جميع الأشياء التي حولي، شملت الأستاذ أيضاً، وأدهشني أن الأستاذ بدأ محاضرته بعبارة تمهيدية لم يكن لها في نظري أي معنى، وكنت أريد من المحاضرة أن تكون رصينة سداها ولحمتها الحكمة من بدايتها إلى المنتهى، بحيث لا يمكن أن تقتطع منه كلمة أو تضاف إليها لفظة، ولما خاب أملي من هذه الوجهة، شرعت على الفور أخطط ثمانية عشر رسماً كروكياً جانبياً للأستاذ في كراسة المحاضرات التي أحضرتها معي، وتربط بين هذه الرسوم دائرة، وجعلت عنوان اللوحة "اللوحة الأولى"، واكتفيت بأن أحرك قلمي تحريكاً ظاهرياً على الورقة بين الحين والحين حتى بنخدع الأستاذ ويظن أنني أكتب ما يقول، وكنت مقتنعا أنه يوجه إلي انتباهه بصفة خاصة.

وفي أثناء هذه المحاضرة نفسها قررت أنه ليس من الضروري على الإطلاق أن أسجل كل كلمة يقولها كل أستاذ، فإن ذلك سيكون عملا ينطوي على البلاهة، وقد نفذت هذا العزم طول مدة دراستي الجامعية.

وفي المحاضرات التالية خف إحساسي بالعزلة والدهشة وتعرفت بطلاب كثيرين وتعودت المصافحة والثرثرة، ولكن لسبب ما لم تنشأ بيني وبين زملائي ألفة حقيقية، وكثيرا ما وجدت نفسي مستوحشاً مكتئباً أتصنع المرح والبشاشة.

ولم يكن في مقدوري أن أنضم إلى حفنة أيفين والارستقراطيين كما كانوا يسمونهم، لأني كما أتذكر الآن كنت فظاً غليظاً في معاملتهم، جافيا لهم لا أنحني لتحيتهم إلا إذا انحنوا لي هم أولا، وبطبيعة الحال لم تكن بهم حاجة شديدة إلى عقد أواصر المعرفة بيني وبينهم.

أما بالنسبة للمجموعات الأخرى، فإن الحواجز بيني وبين معظمهم قامت لسبب آخر، فأنني ما أن أحس أن زميلا قد بدأ يميل إلى ويودني، حتى أفهمه على الفور أنني تغديت على مائدة الأمير أبفانايفانتش، وأن لي مركبة خاصة بي، وكنت أقول له ذلك على أمل أن أبدو في نظره أجدر بتقديره ومودته، فيزيد من حبه لي، ألا أن النتيجة كانت لدهشتي العظيمة تأتي على عكس ذلك تماما، فينقلب هذا الصديق إلى الفتور والترفع بمجرد سماعه بصلتي بالأمير أيفان ايفانتش والقرابة التي تربط هذا الأمير بعائلتنا.

وكان في فرقتنا طالب يتعلم على نفقة الدولة هو الشاب أوبيروف وهو فتى متواضع على درجة عظيمة جداً من الكفاءة، ومجتهد غاية الاجتهاد، وكان من عادته دائماً أن يمد إلى كل إنسان يدا متصلبة كأنها

لوح من الخشب، فلا يحني أصابعه عند المصافحة ولا يهز يده أو يأتي بأية حركة، حتى أن الهازلين من بين زملائه كانوا يصافحونه بالطريقة نفسها، وأطلقوا على هذه الطريقة اسم "المصافحة بأسلوب الألواح".

وكنت في الأغلب الأعم أجلس بجوار أوبيروف، وأتحدث إليه كثيراً، وكان أوبيروف يروقني على الخصوص لآرائه الحرة في الأستاذة، فكان يعرفني في وضوح كبير ودقة بالغة بمزايا دروس كل أستاذ وعيوبها، وكثيراً ما كان يسخر منهم سخرية تترك في نفسي أثراً غريباً مدهشاً، لخروجها من فمه المفرط في الصغر وبصوته الهادئ الخافت.

ومع هذا الرأي في الأساتذة، كان يدون بعناية جميع المحاضرات بلا استثناء، بيده الصغيرة الحجم، وبدأت الصداقة تتوطد بيننا حتى قررنا أن نستذكر دروسنا معا، وبدأت عيناه الصغيرتان الرماديتان القصيرتا النظر تتجهان نحوي بسرور واضح عندما اقترب لأحتل مكاني المألوف بجواره.

ورأيت من الواجب أن أخبره ذات مرة، في عرض الحديث، أن والدتي عندما كانت على شفا الموت توسلت إلى أبي ألا يرسلنا أنا وأخي إلى أي معهد من المعاهد التي تنفق عليها الدولة، فإن جميع الأساتذة هناك والخريجين وأن كان من الجائز أن يتصفوا بالعلم الغزير، ألا أنهم على كل حال ليسوا ممن يقال عنهم أنهم "كما ينبغي".

وتلعثمت لسبب ما وأنا أقول له ذلك وأحسست بالدم يصعد إلى

وجنتي، ولم يقل أوبيروف شيئا في ذلك الحين، ولكنه في المحاضرات التالية لم يبدأ بتحيتي كما كانت عادته والترحيب بي، ولم يمنحني يده الصغيرة المتخشبة ولم يوجه إلى الكلام، وعندما كنت أجلس في مكاني بجواره كان يحني رأسه حتى تكاد تمس الكتب التي أمامه، ويتظاهر بالاستغراق فيها.

وأدهشني برود أوبيروف المفاجئ، ولكني لم أجد من اللائق بكرامة شاب كريم الأصل أن يعاتب طالبا تنفق عليه الدولة مثل أوبيروف، فتركته وشأنه، مع أن فتوره آلمني ألماً شديداً.

وذات مرة وصلت إلى المدرج قبله، وكان المحاضر من الأساتذة المشهورين المحبوبين، فتقاطر على المدرج في ذلك اليوم كثير من الطلاب الذين لم يكن من عادتهم أن يحضروا المحاضرات، ولذا كانت جميع المقاعد مشغولة فجلست في مكان أوبيروف الشاغر ووضعت كراساتي فوق القمطر ثم خرجت، وعندما عدت إلى المدرج أدهشني أن أجد كراساتي وقد نقلت إلى الصف الخلفي في مؤخرة المدرج، وأن أرى أوبيروف جالسا في مكانه المألوف، فنبهته إلى أني كنت واضعا كتبي وكراساتي هناك، فأجابني في ثورة مفاجئة من غير أن يكلف نفسه النظر إلي:

– لا أدري شيئا عن هذا الموضوع.

فقلت متلعثما وأنا أنظر إلى الطلاب من حولي:

– أقول لك أني وضعت كتبي وكراساتي هنا، والجميع شاهدوا ذلك.

ومع أن الكثيرين من حولنا كانوا ينظرون إلي باستطلاع، لم يتطوع أحد منهم للشهادة، وقال أوبيروف وهو يضطجع في المقعد بتشبث ويحملق في وجهي باستنكار:

– أن المقاعد هنا غير محجوزة لأشخاص، من يأتي أولا هو الذي يحتل المكان.

فصحت به:

– هذا يعني أنك سيئ التربية.

وغمغم أوبيروف بكلام لم أسمعه، وما جدوى أن أسمعه؟ هل كنا سنتشاجر كغلمان الشوارع، ولعلني كنت سأقول كلاما آخر تتطور به المشادة، لولا أن الباب انفتح بعنف، ودخل منه الأستاذ في سترته الرسمية الزرقاء واتجه إلى منصته.

ورغم هذا الذي حدث فأنني عندما احتجت إلى المذكرات قبل الامتحان، لم ينس أوبيروف وعده القديم فقدم لي مذكراته ودعاني للأستذكار معه!

الفصل الخامس

أشجان القلب

وفي ذلك الشتاء استحوذت على اهتمامي أمور عاطفية، فأحببت ثلاث مرات!

مرة منها أحببت سيدة بدينة الجسم حباً مشبوباً، وكان من عادة هذه السيدة أن تركب الخيل في مدرسة فريتاج للفروسية، ولذا كنت أذهب إلى هذه المدرسة كل يوم ثلاثاء وجمعة، لأنها كانت تذهب في هذين اليومين إلى هناك، وكنت اكتفي بالتطلع إليها، بيد إني كنت دائماً أرتجف خشية أن تراني وأنا أحملق فيها، ولذا كنت أجلس بعيداً عنها، وإذا رأيتها تقترب من الموضع الذي أحتله، أسرع بالفرار، وإذا نظرت نحوي أشيح برأسي في إهمال، ولذا لم أتمكن من التفرس في وجهها جيداً ولو مرة واحدة، فأنا أجهل حتى يومنا هذا هل كانت جميلة حقا أم لا.

وذات يوم أدهشني أن أرى دبكوف يفاجئني، أو بعبارة أدق يضبطني مختفيا وراء الخدم الذين يحملون معاطف السيدات، وكان دبكوف قد علم من ديمتري نبأ غرامي بتلك السيدة، ولما كان يعرفها معرفة جيدة فقد عرض علي عرضا أفزعني، وهو أن يقدمني إلى تلك الفارسة، وبلغ من فزعي إني وليت الأدبار، وكان مجرد تفكيري في أن دبكوف ربما حدث تلك السيدة بأمري، كافيا في الحيلولة بيني وبين

الأقدام على دخول تلك المدرسة مرة أخرى، ولو للوقوف قرب الباب بين الخدم والحجاب، خوفا من التقائي بها وجها لوجه.

وكنت عندما أحب نساء لا أعرفهن، ولاسيما المتزوجات منهن، أشعر بالخجل الشديد، بل أن هذا الخجل الذي كان يستولي علي كان يبلغ ألف ضعف خجلي وحيائي عندما كنت أحب سونشكا.

كنت أخشى أشد الخشية أن تكتشف محبوبتي الحقيقة، بل كنت أخشى أن تكتشف مجرد وجودي على ظهر الدنيا! لأني كنت أعتقد أنها ما أن تعرف ذلك حتى تحس بإهانة شديدة لحقتها مني بحيث لا تغفرها لي أبدا.

والواقع أن تلك الفارسة لو أنها عرفت بالتفصيل كيف أنني عندما كنت أنظر إليها من وراء صف الحجاب والخدم كنت أفكر في الانقضاض عليها وخطفها إلى الريف، وكيف كنت سأعيش معها هناك، وماذا كنت سأفعل بها، إذن لكان لها الحق كل الحق في الشعور بالاهانة.

وكان من غفلتي أنني لم أفطن إلى أنها حتى أن عرفت شخصي واكتشفت وجودي فلن تستطيع أن تعرف جميع ما يدور في ذهني بشأنها، وأنه لا غضاضة على الإطلاق في التعرف إليها بطريقة عادية.

أما حبي الثاني، فكان تجديداً لحبي القديم لسونشكا، فأني ما أن

رأيتها مع أختي حتى أحببتها حباً جديداً بالمرة، وكانت ليوبا قد أعطتني ديوانا من الشعر نسخته سونشكا بيدها، وفي هذا الديوان قصائد حب ومقطوعات غرامية متشائمة لرمنتوف، وقد وضعت خطوطا بالحبر الأحمر تحت هذه المقطوعات وأزهاراً جافة لتحديد صفحاتها، وتذكرت كيف يفعل العاشقون المتيمون بآثار حبيباتهم، فلما خلوت بنفسي في حجرتي تلك الليلة جعلت أقبل تلك الأزهار، وشعرت بلذة حين غامت بالدموع عيناي وأدركت أني أحببتها من جديد، أو على الأقل هذا ما خيل إلي مدى بضعة أيام!

وأخيراً أحببت للمرة الثالثة في ذلك الشتاء فتاة كان يحبها فولوديا، وكانت تأتي لزيارة بيتنا، وهذه الشابة على ما أذكرها اليوم لم يكن فيها شيء من الجمال، ولاسيما النوع الذي يروق لي عادة.

وكانت هذه الفتاة ابنة سيدة من أشهر السيدات المثقفات في موسكو، وكانت فتاة قصيرة القامة، نحيفة، لها شعر أشقر طويل مرجل على الطريقة الإنجليزية، وكان الجميع يقولون عنها أنها أذكى وأعلم من أمها، بيد أن ظروفي لم تكن تسمح لي بتميز هذه الأمور، فقد كلمتها مرة واحدة ولم يترك الحديث المتحفظ أثراً رائعاً في نفسي، بيد أن توله فولوديا بها– وكان من عادته ألا يكتم شغفه وهيامه عن الناس– سري إلى نفسي بطريق العدوى سريانا بلغ من قوته أني علقت بهذه الفتاة بصورة جنونية.

ولما كنت أعلم أن فولوديا لن يرضيه الأمر، كتمته عنه، وفي الوقت نفسه شعرت بلذة كبرى لأن هذه العاطفة كانت طاهرة، ولذا يمكن أن تستمر المودة بيني وبين أخي رغم اشتراكنا في حب فتاة واحدة، وقدرت أن ذلك سيجعل من اليسير على أي واحد منا عندما يأتي الأوان أن يضحي بنفسه وسعادته في سبيل الآخر!

ولكن يظهر أن فولوديا ما كان ليشاركني في موقفي بخصوص الاستعداد للتضحية بالنفس، لأنه كان يعشق تلك الفتاة عشقاً عنيفاً، حتى أنه انتوى أن يصفع شاباً موظفاً في السلك السياسي على وجهه لأنه سيقدم على الزواج بها، كي يضطره إلى المبارزة.

لقد كان يطيب لي جداً أن أضحي بعواطفي، ولعل ذلك راجع إلى أن هذه التضحية لم تكن تكلفني كثيرا من الجهد، فهي عواطفي غير ذات جذور، وكل ما جنيته من هذا الحب أني حدثت تلك الشابة ذات مرة برأيي في الموسيقى الكلاسيكية، وكان رأيا خطيراً حقاً.

ورغم جهودي الكبيرة في استبقاء جذوة هذا الحب متقدة في نفسي، لم يلبث أن مات في مهده، بعد أسبوع واحد!

المجتمع

وكانت المسرات الشائعة في المجتمع، التي حلمت أن أعب منها عندما أدخل الجامعة محاكاة لأخي الأكبر، سببا في شعوري بخيبة الأمل الشديدة في ذلك الشتاء، وكان فولوديا يكثر من الرقص، وأبي أيضا

يذهب إلى المراقص الساهرة في قصور العلية وفي الأوبرا مع زوجته الشابة، ولكن يظهر أنهم كانوا يعتبرونني أحدث سنا من أن أحظى بهذه المسرات، أو غير لائق لها، ولذا لم يقدمني أحد إلى البيوت التي تقام فيها الحفلات الراقصة.

وعلى الرغم من عهد الصراحة المتبادلة بيني وبين ديمتري، لم أتحدث إلى أي إنسان حتى ولا إليه عن رغبتي الشديدة في الذهاب إلى الحفلات الراقصة ولا كيف يؤلمني ويخجلني نسيانهم إياي وإهمالهم شأني، وكان من الواضح أنهم ينظرون إلى نظرتهم إلى فيلسوف لا تعنيه هذه الأمور الدنيوية، وهذا ما حاولت أن أتكلفه وأتظاهر به فعلا.

وفي غضون الشتاء أقامت الأميرة كورنكوفا حفلة مسائية، وقامت هي شخصيا بدعوتنا جميعا إليها، بما فيهم أنا، وهكذا أتيح لي أن أذهب فأشهد لأول مرة في حياتي حفلة راقصة.

وحضر فولوديا إلى حجرتي قبل أن يرتدي ثيابه بقصد أن يرى كيف سأتهيأ لتلك الحفلة وكيف ستكون ثيابي، وأدهشني هذا التصرف من قبله دهشة عظيمة وحيرني، ذلك أنه كان يخيل إلى أن الرغبة في حسن الملبس رغبة مخجلة، وأنه من الضروري، بل ومن الواجب المحتوم أن يخفي الإنسان تلك الرغبة، أما هو فكان على العكس من ذلك يعتبرها رغبة طبيعية لا غنى عنها، حتى أنه كان يقول بصراحة تامة:

– أني لأخشى أن تسئ إلى نفسك ويلحقك الخزي لعدم ظهورك

في الملبس الملائم بالطريقة الملائمة.

ثم أمرني أن أحرص على انتعال حذائي المصنوع من الجلد الرقيق، وأفزعه جدا أن يراني أهم بارتداء قفاز من الشامواه، وحرص على أن تكون ساعتي في وضع معين حدده بيده، ثم حملني حملا في عربته إلى دكان الحلاق الذي يقص شعره عنده في أرقى حي بالمدينة، وقام الحلاق بتمويج شعري تمويجاً صناعياً، وتراجع فولوديا إلى الوراء وأخذ ينظر إلي عن بعد... ثم قال للحلاق:

– هذا جميل، ولكن ألا تستطيع أن تقص من هذا الجانب قليلا، وأن تجعل الشعر في هذه الناحية ناعماً مرجلاً أكثر من هذا؟

وأقبل الحلاق الفرنسي المسيو شارل على تنفيذ تلك الرغبة، ولكن الشعرات القائمة في جانب رأسي رفضت أن ترضخ لتأثير المادة الصمغية ونفرت واقفة كالأشواك من جديد، وخيل إلي أن منظري في هذا الشعر المجعد أمسى أسوأ مما كان، والحقيقة أن منظري لا يصلح للأناقة ولا يصلح بها، وفرصتي الوحيدة أن أبدو في مظهر أقرب إلى الإهمال، فيكسبني ذلك نوعا من الوجاهة.

ويبدو أن فولوديا وصل أخيرا إلى هذا الرأي، فطلب مني عندما عدنا إلى البيت أن ألغي هذه التموجات، فغلفت كما أمرني، ولكن منظري لم يتحسن، فيئس فولوديا من أمري ولم ينظر إلى وجهي بعدها وظل صامتاً مكتئباً طول الطريق إلى قصر آل كورنكوف.

ودخلت قصر آل كورنكوف بكل أقدام بجوار فولوديا، ولكن عندما دعتني الأميرة للرقص تعللت لها بعذر ما وقلت إني لا أرقص عادة، مع أنني ذهبت تلك الليلة خصيصا لا لشيء إلا لكي أرقص ما وسعني الرقص، وبعد أن قلت لها ذلك شعرت فجأة بالخجل، وقد تركوني وحدي مع أناس لا معرفة لي بهم من قبل، فزاد ذلك من انطوائي وظللت صامتا لا أبرح مكاني طول السهرة.

وفي أثناء رقصة من رقصات الفالس أقبلت نحوي إحدى الأميرات من آل كورنكوف وسألتني بالظرف المعهود في جميع أفراد أسرتها على سبيل المجاملة:

– لماذا لا ترقص يا سيدي؟

وأني لأذكر حتى اليوم كيف استولى علي الخجل لهذا السؤال، ولكن في القوت نفسه أشرق وجهي بابتسامة لا إرادية ورحت أحدثها باللغة الفرنسية حديثاً سريعاً ملتوياً حافلاً بالجمل الاعتراضية، حتى أني بعد مرور عشرات السنوات على هذا الموقف لم أزل أذكره بالخجل الشديد.

ولابد أن الموسيقى أحدثت أثرها في نفسي، أثرت أعصابي، ولكني أملت أن تفرق هذه الموسيقى في ضجتها نبرات صوتي فلا تسمع الأميرة هذياني، لأني كنت أحدثها عن الطبقة الراقية وغرور أفرادها ولاسيما النساء منهم، إلى أن وجدت نفسي قد تورطت في مأزق لا حيلة فيه،

فتوقفت في منتصف الكلام عاجزاً عن الاستمرار فيه.

ورغم تأدب الأميرة الشديد، لم تستطع أن تمنع نفسها من إظهار ما يعتمل في أعماقها، ونظرت إلى نظرة عتاب، فابتسمت، وفي هذه اللحظة الحرجة اقترب منا فولوديا، وكان قد لمح عن بعد طريقة كلامي في حماسة واحتداد، ولعله أراد أن يعرف كيف سأعتذر عن عدم اشتراكي في الرقص، وكان دبكوف في صحبة فولوديا، ولما رأى فولوديا ابتسامي، وأمارات الاستياء والارتياع المرتسمة على وجه الأميرة، ثم سمع طرفا من الهذر الذي كنت أطلقه من بين شفتي، أحمر وجهه وابتعد مديراً لنا ظهره.

ونهضت الأميرة واقفة وغادرتني، ولبثت أنا أضحك، أو بعبارة أصح ابتسم ابتساماً تشنجياً لفرط شعوري بغباوتي، حتى لقد تمنيت في تلك اللحظة لو أن الأرض انشقت وابتلعتني، وأدركت أنني يجب أن أقوم بأية حركة بالغا ما بلغ الثمن وأن أقول شيئاً يحسن موقفي قليلاً.

وتوجهت إلى دبكوف وسألته أن كان قد راقصها أدواراً كثيرة، ونسيت في حرج الموقف أن دبكوف هذا هو الذي انتهرته في مطعم يارمنذ شهور وطلبت منه ألا يمزح معي، فتظاهر دبكوف أنه لم يسمعني وأشاح عني، فتركته واقتربت من فولوديا وكلمته بلهجة المزاح المتكلف، ولكنه نظر إلي صامتاً نظرة كأنه يقول لي بها:

– أنك لا تخاطبني بهذه اللهجة ونحن في خلوة، فماذا دهاك هنا؟

وأولاني ظهره أيضاً وابتعد، وكان ظاهراً من سلوكه أنه يخشى أن ألازمه، فقلت في نفسي:

– حتى أخي يتخلى عني!

ولكن لسبب ما لم تواتني العزيمة على الانصراف، فظللت واقفا حيث كنت إلى نهاية السهرة، ولم أفق لنفسي ألا عندما أخذ الجميع يغادرون الحجرة ويتجمعون في البهو، وتقدم الخادم ليساعدني على ارتداء معطفي، وعندئذ انفجرت ضاحكاً بمرارة والدموع تنهمر من عيني.

ومع أن تأثير ديمتري على لم يزل في ذلك الوقت يمنعني من الانهماك في ملاهي الطلبة المألوفة ومباذلهم التي كانت تسمى حفلات "العربدة"، ألا أني في ذلك الشتاء اشتركت مرة واحدة في حفلة منها، وخرجت منها بتأثير حسن، وهاكم كيف حدث ذلك:

ذات يوم، أثناء محاضرة من محاضرات بداية العام، دعاني البارون "ز" وهو شاب طويل القامة أشقر يبدو عليه الجد، أنا وسائر الجماعة إلى بيته لتمضية سهرة معه، والمقصود هنا بالجماعة هم طبعا أبناء فرقتنا الجامعية الذين يقال عنهم أنهم كما ينبغي، فلم يكن فيهم بطبيعة الحال جراب ولا سمينوف ولا أوبيروف، ولا أي طالب ممن على شاكلتهم أو دونهم.

وابتسم فولوديا باستخفاف عندما سمع أنني سأذهب إلى حفلة

عربدة يقيمها طلاب السنة الأولى، ولكني توقعت أن استمتع بسرور عظيم في هذه الحفلة، لأنها كانت شيئا طريفا بالنسبة لي، ولذا كنت في الساعة الثامنة تماماً في بيت البارون "ز"، وهو الموعد المحدد لبداية السهرة.

وكان البارون "ز" مرتديا سترة بيضاء، ومعطفه مفكوك الأزرار وهو يستقبل ضيوفه في البهو المتوهج بالأنوار وفي قاعة الاستقبال بمنزل والديه، وكان والده قد أذنا له باستعمال قاعات الاستقبال والبهو لاحتفال تلك الليلة، ولمحت في الدهليز وجوه وملابس الخادمات المستطلعات، كما مرت مرة سيدة أظنها كانت البارونة.

وكان الضيوف نحو عشرين، وكلهم من الطلبة فيما عدا الهر فروست الذي جاء مع أيفين، ورجلا طويل القامة أحمر الوجه في ثياب مدنية كان طالبا سابقا في جامعة دوبارت، وهو من أقرباء البارون.

وفي البداية أحدثت الإضاءة الشديدة وزخارف قاعات الاستقبال شعوراً عاماً بالتحفظ لدى الشبان، فلم يتحركوا كثيرا، اللهم إلا نفر قليل من ذوي الجسارة جعلوا يتنقلون بين الحجرات في خفة ويشيعون في أرجاء المكان شيئا من التبسط، ثم نهض الطالب السابق في جامعة دوربات وفك أزرار صداره ورفع عقيرته بالغناء، بيد أن الباقين ظلوا صامتين، أو جعلوا يتناقشون حول الأساتذة والعلوم والامتحانات وسائر هذه الموضوعات الجدية غير المسلية.

وكان كل واحد منهم بلا استثناء يحدق في اتجاه باب قاعة الطعام، ولسان حاله يقول بوضوح:

– لقد آن الأوان للابتداء!

وشعرت أنا كذلك أن الوقت قد حان للابتداء، وانتظرت هذا الابتداء بلهفة وسرور.

وبعد أن قدم إلى الضيوف الشاي، سأل الطالب السابق الهر فروست بالروسية أن كان يجيد صنع البانش، فأجابه فروست بالألمانية:

– طبعا!

وأخذ يهز قبضته بنشاط، فعاد إلى سؤاله بالروسية:

– وماذا تنتظر؟ هيا ابدأ في صنعه.

وشرع فروست يذهب من قاعة الاستقبال إلى قاعة الطعام ويعود بخطوات واسعة من ساقيه القويتين، وبعد قليل وضع فوق المائدة إناء ضخما من آنية الحساء، ووضع في الإناء قطعة ضخمة من السكر تزن عشرة أرطال في وضع عمودي، وسندها الطلبة بثلاثة خناجر، وفي الوقت نفسه أخذ الباون "ز" يهيب بالطلبة بالباقين في حجرة الاستقبال بصوت جاد كل الجد:

– هيا أيها السادة كي نشرب كما يشرب الزملاء، على طريقة الطلبة، فإنه من المخجل ألا تتوثق الألفة بيننا ونحن أعضاء فرقة دراسية واحدة، وليفك كل واحد منكم أزرار صداره، أو ليخلعه كلية.

وأقبل طالب دوبارت السابق على معطفه فخلعه، ثم شمر كمي قميصه إلى ما فوق المرفقين، وباعد ما بين قدميه في وضع يدل على التصميم، وأشعل النار في الروم الموجود بآنية الحساء، وصاح فجأة:

– اطفئوا الأنوار أيها السادة:

فشرعنا جميعا نطفئ الشموع وقد سرى فينا المرح أخيراً، ولما سادت الظلمة، ظهرت النار مشتعلة في الروم، وقطعة السكر تحترق بلهب أزرق، وعلى ضوئها ظهر لنا وجه طالب دوبارت وقميصه الأبيض، وهو يقلب السكر بخنجر طويل ويغني، فانضم إليه الجميع في ضجة جعلت أركان المكان تهتز، وخلع الكثيرون ستراتهم، ولاسيما من كانوا منهم يرتدون قمصانا فاخرة، وخلعت أنا أيضا معطفي لأني أدركت أن البهجة الحقيقية بدأت، وكنت واثقا تمام الثقة أن المرح سيكون عظيماً متى شربنا كوبا من هذا المشروب الذي يحضره طالب دوبارت العجيب.

وأخيراً تم إعداد الشراب، وصب الطالب الدوبارتيالبانش في الأكواب، وسكب مقداراً كبيراً منه على المائدة ثم صاح:

– هيا أيها السادة!

وتناول كل واحد منا كوبا حافلة من الشراب، وأخذ الهر فروست يغني مع الطالب الدوبارتي أغنية ألمانية، فأخذنا نغني معهما غناء يغلب عليه النشاز، ونقطع ذلك لنصيح بعبارات الثناء على ذلك الشراب الحلو الطعم، وكان واضحاً أن الحفلة أصبحت في ذروتها، وكنت قد شربت كوبا كاملا فصبوا لي كوبا آخر، وبدأت عروق عارضي تنبض نبضاً عنيفاً، وكل واحد ممن حولي يصرخ ويضحك، ومع ذلك أحسست أن هذا المرح ظاهري، وأن الجميع مثلي يشعرون بالسأم والملل ويتصنعون البهجة فيما عدا الطالب الدوبارتي.

وازداد احتقان الوجوه وانطلاق الألسنة، والطالب المرح كلما رأى كوباً فارغاً ملأه في الحال، وأعجبني مرحه الطبيعي حتى أني حفظت عن ظهر قلب الأغنية الألمانية التي كان يرفع عقيرته بها.

وازداد عنف الصداع، وبدأت أفقد سيطرتي على أطرافي كما حدث لي في مطعم يار، وخيل إلي أني سأموت في الحال، ونظرت حولي فإذا الجميع وقد جلسوا على الأرض ومدوا أذرعتهم كأنهم يجدفون، وأخذوا ينشدون نشيد الملاحين في نهر الفولجا.

وأذكر بغموض أننا تناولنا العشاء وشربنا نوعا آخر من الشراب، وأني خرجت بعد ذلك إلى فناء البيت لأستنشق الهواء وقد أيقنت من سكري سكراً واضحاً، وكانت الظلمة حالكة فلم أتبين سلم عربتي، ولم أستطع أن أعتمد على كوزما في الركوب، لأنه كان ضعيفا متقدما في السن.

وأحسست على العموم بغباوتي الشديدة لأني بحثت عن المرح بهذه الصورة المتكلفة، وشربت فوق طاقتي غير مفكر في العواقب، وكان رأيي في سائر الحاضرين أنهم أغبياء حقيقة غاية البغاء في تكلفهم السمج لسرور لا حقيقة له، ومشكلتهم في الواقع أن كل واحد منهم كان يتوهم أنه وحده المتضجر البرم، وأن الآخرين مسرورون سرورا لا مزيد عليه، فيجد من البلاهة أن يبدو على خلاف المجموع المحيط به، ويندفع في تصنع البهجة والطرب مجاراة للتيار العام.

وهذا ما فعلته شخصيا إذ قدرت كمية الشراب التي استخدمت في تلك المأدبة بسبعين روبلا، فضلا عن أصناف المآكل، فمن قلة الذوق أن أبدي عدم السرور والانشراح.

ولكن الذي أدهشني حقا أن من حضروا عربدة البارون ز، جعلوا في اليوم التالي يتفاخرون في مدرج الجامعة بما حدث، غير مستشعرين الخزي من أنفسهم، بل أنهم كانوا يتكلمون بصوت مرتفع متندرين بما كان في الحفلة من تهريج، حتى يسمعهم من لم يحضرها من الطلبة.

وكان من أهم ما تفاخروا به أن العشرين شابا احتسوا أربعين زجاجة روم، وأن أكثر من طالب قضوا ليلتهم على الأرض تحت المائدة من شدة السكر إلى الصباح.

ولم أستطع أن أفهم لماذا كانوا يتكلمون عن أنفسهم بهذه الصورة، ولماذا على الخصوص يبالغون كذبا وبهتانا فيما من شأنه أن يسكوهم عارا.

ومع أن أبي لم يكن في نيته القدوم إلى موسكو مع زوجته إلا بعد رأس السنة، فقد رأيناه يصل في شهر أكتوبر، في الموسم الذي يستحب فيه الصيد والطراد في الريف، وقال أبي في تعليل ذلك أنه غير خطته بسبب قضية له ستنظر أمام مجلس الأعيان، بيد أن ميمى أخبرتنا أن فاسيليفنا زوجته سئمت الإقامة في الريف، وجعلت تجري كثيرا ذكر موسكو على لسانها، وتصنعت المرض، فاضطر أبي إلى إجابة مطلبها، وقالت ميمى في ذلك الصدد:

– أنها لم تشعر بحبه في يوم من الأيام، وكل ما هناك أنها ظلت تتشدق بالحب لأنها كانت تتوق إلى الزواج من رجل ثري.

وتنهدت ميمى، وكأنها تعني بذلك التنهد:

– أن امرأة أخرى غير فاسيليفنا، امرأة معينة بالذات، كانت حرية أن تسعده، لو أنه عرف كيف يقدر مزاياها.

بيد أن تلك المرأة المعينة بالذات ظلمت فاسيليفنا، فأن حبها لأبي حباً شديداً مخلصاً، وتضحيتها في سبيله براحتها، كانت أمراً واضحاً جداً في سلوكها كله، ألا أن هذا الحب الشديد لم يكن يمنعها من التعلق بالثياب الجميلة والأناقة التي تبرزها في أحسن صورها.

وقد نشأت علاقات غريبة بيننا زوجة أبينا منذ أول لحظة لوصولها،

فبمجرد نزولها من العربة أتجه فولوديا نحوها متبخترا وقبل يدها بوقار شديد، وقال لها وكأنه يقدم لها شخص آخر:

– أتشرف بأن أقدم إليك تهنئتي بالوصول، بوصول أم عزيزة ويسرني أن أقبل يدها.

فقالت فاسيليفنا وهي تبتسم ابتسامتها الجميلة المتشابهة:

– آه يا ابني العزيز!

فقلت أنا، مقتربا منها لتقبيل يدها ومحاولا عن غير قصد محاكاة فولوديا في هيئته ولهجته:

– ولا تنسى يا سيدي ابنك العزيز الثاني!

وكان من الواضح أن هذا الاستقبال ينم عن شيء من التهكم المموه بالرياء، وبدأت العلاقات بيننا وبينها تتأسس على هذا النمط، فكنا على الدوام مهذبين معها، ولاسيما أنا وفولوديا، نناديها بالفرنسية ونحن ننحني بقولنا يا أمنا العزيزة، فيكون جوابها علينا بمثل ذلك الأسلوب، أما ليوبا فكانت أقل منا نفاقا وتكلفا، لما شعرت به من الميل نحو زوجة أبينا، وحاولت بطريقتها الساذجة أن تقربا من نفسينا، ولذا كانت ليوبا هي المخلوق الوحيد من أفراد الأسرة الذي أحيته فاسيليفنا حقا بعد والدنا، بل أن فاسيلفينا كانت تكن لأختنا إعجاباً شديداً واحتراماً كان يدهشنا كثيراً.

وفي البداية كانت فاسيليفنا مولعة جدا بأن تسمي نفسها باسمها الحقيقي، أي أنها زوجة أب، وتلمح إلى الطريقة الظالمة السيئة التي جرت العادة أن ينظر بها أفراد الأسرة إلى زوجة الأب، وإن مركزها لهذا السبب يكون حرجاً، ومع ذلك لم تحاول أن تتجنب سوء الموقف بأن تلاطف هذا مثلا أو تتحف ذاك بهدية، بل أنها لم تحجم عن ذلك المسلك المتودد فحسب، وإنما راحت فضلا عن ذلك تسير في الطريق العكسي، فتعد عدتها للوقوف موقف الدفاع من غير أن يقع عليها هجوم، وأخذت مأخذ التسليم أن جميع أفراد الأسرة يريدون استخدام كل ما في وسعهم لاهانتها والإساءة إليها وتكدير صفوها، فتشعر بسوء القصد في كل حركة، وترى أن أليق خطة بها هي الاحتمال في صمت، فكان من نتيجة هذه السلبية أن اكتسبت العداوة بدلا من المودة.

ويضاف إلى هذا أنها كانت عاجزة عن فهم الناس فهماً صامتاً لا يحتاج إلى الألفاظ، مع أن هذه الوسيلة في التفاهم كانت قد نمت وتأصلت في أسرتنا، كما أن عاداتها كانت تخالف العادات التي ألفناها في بيتنا مما أكد غرابتها في جونا وغربتها فيه، فتبدو لعيوننا في بيتنا الأنيق الهادئ المنظم بطريقة خاصة وكأنها دخلته لتوها، مما يستتبع النظر إليها نظرة الطارئة التي ينتظر منها أن ترحل، فهي مثلا تصحو أحياناً مبكرة، وفي أحيان أخرى تصحو متأخرة، وتارة تتناول العشاء وتارة لا تتناوله، وتقضي معظم النهار بملابس النوم تقريبا غير محتفية بزيها طالما أنه ليس في بيتنا ضيوف، ولا يخجلها أن تبدو لنا، بل وللخدم في قميص أبيض من فوقه شال يبرز منه ذراعاها العاريتان.

وفي البداية طاب لي هذا التجاوز للتقاليد والعرف، ولكن سقط تهيبي لها واحترامي السابق، وأذهلني أن أجد في جلدها امرأتين مختلفتين، تبدو أحداهما حين يكون في البيت زائرون، وتبدو الأخرى حينما يخلو البيت من الزوار.

فحينما يكون في البيت زوار، نرى أمامنا شابة صحيحة الجسم جميلة أنيقة الزي مرحة ليست بالذكية ولا بالغبية، حتى إذا خرج الضيوف رأيناها امرأة مجهدة، فارقها رونق الشباب، واستولى عليها السأم.

وكثيراً ما سألت نفسي ماذا عسى أن يقول القائلون من المعجبين بها لو أنهم رأوها كما نراها تحت، صامتة واجمة خايبة النظرات والابتسامة كأنها شبح، غير مرجلة الشعر، تنتظر أوبة زوجها من النادي، وقد تنهض بنفسها إلى غرفة المخزونات حتى لا تزعج الخدم فتحضر خياراً مملحاً وتأكله وهي واقفة بجوار النافذة، أو تتجول بين الحجرات في ملالة واضحة.

وكل هذا كان يحتمل إلا شيئاً واحداً أذهلنا وأثار اشمئزازنا، وهو حديثها الذي لا ينقطع إلى كل إنسان يزورنا عن مبلغ حبها لا بينا، وهي صادقة فعلا في هذا، فحياتها كلها تتلخص وتتركز في حبها لزوجها، بيد أن تقديرها لهذا الحب في غير تحفظ كان يبدو لنا مبتذلاً، فكنا نشعر بالخجل منها حين تتحدث في هذا إلى الغرباء، بل أن خجلنا منها لذلك السبب كان أشد من خجلنا حين تخطئ في اللغة الفرنسية!

لقد كانت تحب زوجها فوق حبها لكل ما في الدنيا، وكذلك زوجها كان يحبها ولاسيما في البداية، وكان هدف حياتها الأوحد أن تكسب حب زوجها، ولكن يبدو كأنها كانت تعمل عامدة بكل ما في وسعها على إتيان ما يثير استياءه، مع أنها كانت تأتي تلك الأمور بالذات بقصد إظهار قوة حبها له واستعدادها لتضحية نفسها في سبيله.

كان غرامها بالثياب الفاخرة عظيماً، وكان أبي يحب أن يراها جميلة في المحافل والمجتمعات، تثير الثناء والإعجاب، ولكنها ضحت بحبها في شهود المحافل من أجل أبي، وتعودت الجلوس في البيت في ثياب خالية من الأناقة.

وكان في مرجو أبي أن تتوطد الألفة على قدم المساواة بين ليوبا وزوجته الشابة، بيد أن فاسيليفنا انتهجت خطة غريبة، فجعلت دأبها أظهار الاحترام لربة البيت الحقيقية في نظرها وهي ليوبا! فاغتاظ والدي لذلك غيظاً شديداً.

وكان أبي يكثر من المقامرة في ذلك الشتاء، وخسر فيها مبلغاً طائلاً من المال، بيد أنه أخفى ذلك عنا كعادته حتى لا يخلط لهوه بحياته العائلية، ولما حملت فاسيليفنا واعتلت صحتها وجدت من واجبها أن تلزم البيت باستمرار، وتظل في ثيابها المنزلية وشعرها المشعث جالسة في انتظاره إلى الرابعة صباحا حين يعود من المقامرة مجهداً يشعر بالخزي من خسائره الفادحة، وعندئذ تسأله وهي شاردة هل حالفه الحظ

في المقامرة، وتصغي لما يرويه لها عن أحداث الليلة في النادي، ثم يتوسل إليها للمرة المائة ألا تظل جالسة في انتظار أوبته، ولكنه رجاء يذهب أدراج الرياح، وتثابر على انتظاره وهي تعاني من الغيرة لطول غيابه عنها، إذ كانت تعتقد اعتقاداً جازماً لا حيلة في اقتلاع جذوره من رأسها أن أبي لا يقضي سحابة الليل في لعب القمار، بل في أحضان عشيقة!

وهذا هو السر في أنها كانت تسأله عن أحداث ليلته في النادي، عسى أن يزل لسانه فيروي لها شيئاً غير معقول يفضح سره، وكانت تجتهد أن تقرأ هذا السر في وجهه وعينيه، فإذا أعياها أن تقرأ هناك شيئاً من ذلك، أكلت قلبها كمدا وحسرة!

وكان من نتيجة تصرفاتها هذه مدفوعة بحب أبي، أن أخذ حب أبي لها في أواخر الشتاء، عندما استفحلت خسائره، يتناقص حتى وصل إلى شيء من المضاضة والكراهية، ووافق ذلك تضخم بطنها بالحمل، وأصبحت تصرفاته معها تنم عن شيء كثير من الرغبة المكبوتة في الإساءة إليها إساءة معنوية موجعة.

أصدقاء جدد

وتسلل الشتاء، وبدأ في أعقابه الربيع، وعلقت قوائم الامتحانات الجامعية، وإذا بي أتذكر فجأة أنني مطالب بالإجابة عن ثماني عشرة مادة سمعت فيها محاضرات، ولكني لم أنصت إلى محاضرة منها أو أسجلها بالكتابة أو أستعد للامتحان فيها.

وأنه لمن العجيب أن سؤالاً هيناً كهذا السؤال:

- كيف سأؤدي الامتحانات؟

لم يخطر بذهني من قبل، فهل كنت مثالاً للكسل طوال ذلك الشتاء، أم أنها نشوتي وفرحتي بالنمو، وبأنني كما ينبغي، أما الآخرون فليس منهم من يعتبر كما ينبغي إلا الأقلية النادرة، والحق أنني كنت أتردد على المحاضرات لا لشيء إلا لأني تعودت ذلك، وكان لي معارف كثيرون أقضي في صحبتهم وقتاً طيباً في الجامعة، وكنت أحب الضجة وتجاذب الحديث السهل والضحك في المدرجات، وأصبح من عادتي أن أجلس في الصف الأخير وأرخي العنان للأحلام، وصوت الأستاذ الرتيب المتواتر يهدهدني في تلك الأحلام. وأن صحوت منها جعلت أرقب زملائي.

وبين الحين والحين كنت أتخلف عن المحاضرات وأذهب مع بعض صحابي إلى مقصف مارتن لنحتسي الفودكا ونأكل وجبة خفيفة، ثم أذهب إلى المحاضرة متأخراً وأسمع الأستاذ يوبخني وأنا أبدي شيئاً من الخجل.

ولما تقدم العام وانتظم الطلبة، وأتم أستاذ الطبيعة محاضراته واحتجب عنا إلى موعد الامتحانات، انهمك الطلبة في جمع المذكرات والاستعداد، وبدأت أنا كذلك أفكر في الامتحان، وكانت علاقاتي بأوبيروف فاترة جداً، أحنى له رأسي عن بعد، بيد أنه دعاني لتحضير

الامتحان من مذكراته أنا وبعض الطلبة، وشكرته ولكني رجوت أن يكون اجتماعنا في بيتي، فأخبروني أنهم قرروا الاجتماع في بيت كل واحد منا مرة، وكان أول اجتماع في مسكن زوخين، وهو عبارة عن حجرة صغيرة في بيت كبير بشارع تربني، وكان وصولي إلى الاجتماع الأول متأخراً وقد شرعوا في القراءة فعلا، ووجدت الحجرة حافلة بالدخان المنبعث من طباق زوخين، وفوق المائدة زجاجة فودكا وأكواب وخبز وملح.

ودعاني زوخين من غير أن ينهض واقفاً إلى تناول كأس من الفودكا وأن أخلع معطفي، وأردف ذلك بقوله:

– أعتقد أنك لم تألف مثل هذه الأشياء...

وكان كل واحد من الحاضرين مرتدياً قميصاً رخيصاً قذراً فأحببت ألا أبدي ازدرائي لهم وخلعت معطفي واستلقيت على الأريكة في تبسط، وواصل زوخين القراءة بصوته المرتفع، وكان البعض يستوقفونه ليلقوا عليه أسئلة كان يجيب عنها دائماً بدقة وذكاء وإحاطة، وأصغيت برهة من الوقت، ولكني لم أفهم شيئاً كثيراً، لأني لم أعرف ماذا كان من أمر المادة قبل حضوري، فسألت سؤالاً ينبئ عن ذلك فقال زوخين:

– أنك أيها الرفيق العجوز لن تستفيد من الاستماع ما لم تكن لديك فكرة عن المادة، وسأعطيك المذكرات حتى تطالعها الليلة وغدا.

وشعرت بالخجل الشديد لجهلي، وفي الوقت نفسه كنت على

يقين من صواب كلام زوخين، فكففت عن الإصغاء وشغلت نفسي بملاحظة هؤلاء الرفاق، وعلى حسب التصنيف الذي كنت أطبقه على الناس، فأقسمهم إلى من هم كما ينبغي ومن ليسوا كما ينبغي، أيقنت أن هؤلاء كانوا من الفريق الثاني ولا مراء، وتكون في نفسي شعور عميق لا بالازدراء لهم فحسب، بل وبالكراهية أيضاً، فهم على الرغم من دونيتهم كانوا ينظرون إلي كما لو كنت ندا لهم، بل وأحياناً كانوا يعاملونني بما يشعر بترفقهم بي.

وكان نظري إلى أقدامهم وأحذيتهم القذرة وأيديهم وأظافرهم غير المشذبة، والألقاب البذيئة التي يتقاذفونها فيما بينهم في غير تورع أو تكلف، وطريقة زوخين في التمخض إذ يسد بأصبعه أحد منخريه، كل ذلك جعلني أتقزز منهم تقززاً فظيعاً.

وعلى الرغم من ذلك المظهر الذي نفرني منهم، لم أخطئ في هؤلاء الناس جوانب طيبة، فهم متآخون فيما بينهم مؤاخاة جذبتني إليهم وجعلتني أتمنى مزيداً من المعرفة بهم، وهو أمر لم يكن صعباً عسيراً وأنا أعرف من بينهم ذلك الفتى الرقيق الجاد أوبيروف.

وكان زوخين صاحب النفوذ والسيطرة على المجموعة كلها يروقني كثيراً، وهو شاب قصير بدين أسمر اللون يفيض وجهه بالبشاشة والذكاء والحيوية، وله لحية سوداء مدببة، ولا يبدو عليه مطلقاً أنه يفكر في نفسه وأن كان من الواضح أن ذهنه لا يعرف الكسل أو الخمود.

وما أن حان المساء حتى رأيت التجاعيد تظهر فجأة على وجهه، ورأيت عينيه تزدادان عمقاً، وابتسامته يعتريها التغير حتى صار من العسير أن أعرف فيه الشخص الذي رأيته في بداية الأمسية.

ولما انتهى الاجتماع شرب زوخين وأصحابه كوبا من الفودكا، وشربت مثلهم حتى أظهر لهم رغبتي في مصادقتهم، ولم يكد يتبقى في الزجاجة شيء فسأل زوخين: من منا معه ربع روبل كي يرسل العجوز التي تخدمه فتشتري مزيداً من الفودكا، وعرضت عليه نقودي، بيد أنه تحول إلى أوبيروف وكأنه لم يسمع صوتي، وأعطاه أوبيروف النقود المطلوبة، وهو يقول له:

– أحذر من الإفراط في الشراب...

والحقيقة أن أوبيروف لم يكن يحتسي الخمر إطلاقاً، فكان لهذا التحذير معناه، وأجابه زوخين باسما في مودة:

– وماذا لو أنني أفرطت؟ ما الضرر؟ أراهن أني أستطيع أن أجاري في قدرتي على الشراب أي فتى منكم، ولكن سمينوف هو الذي يجازف بالرسوب في الامتحان حقا لإفراطه في الشراب هذه الأيام.

والحق أن سمينوف الذي كان ترتيبه الثاني في امتحان القبول بالجامعة وظل يواظب على حضور المحاضرات طوال الشهر الأول من السنة الجامعية، قد انصرف بعد ذلك إلى الشراب، وفي أواخر السنة

أصبح لا يرى في مبنى الجامعة إطلاقاً، وسأل بعض الرفاق:

– وأين هو الآن؟

فقال زوخين:

– لقد غاب عن نظري في المدة الأخيرة، وفي آخر مرة تقابلنا قضينا معا ليلة حمراء في مقصف لسبون، ويقال أن منظرنا أثار ضجة وفضيحة، ولعمري أنه لرجل هائل! كأن في جوفه ناراً لا تنطفئ! وأن عقله لجبار، وليس من المعقول أن يطيق الهدوء في الجامعة.

وبعد فترة أخرى من الحديث نهض الجميع للانصراف بعد أن اتفقوا على اللقاء في مسكن زوخين في الأيام التالية، لأن مسكنه كان أقرب مسكن، ولما خرجنا إلى فناء البيت شعرت بالحرج الشديد، فهم جميعا سينطلقون على أقدامهم، وليس بينهم من تنتظره عربة سواي، وعرضت في حياء على أوبيروف أن أحمله إلى بيته، وكان زوخين قد خرج معنا واقترض من أوبيروف روبلا فضياً ليقضي سهرة قاصفة مع أصحابه في الملهى.

وفي طريقنا بالعربة، أخبرني أوبيروف الشيء الكثير عن خلق زوخين وأسلوب حياته، ولما وصلت البيت لم أستطع النوم وظللت وقتاً طويلاً أفكر في أولئك الناس الذين تعرفت بهم الليلة، وأنا حائر متردد بين احترام علمهم وأمانتهم وبساطتهم، وبين التقزز الذي شعرت به من مظهرهم السيئ.

ولم تشفع لهم رغبتي الصادقة في صحبتهم لأن تأثير المظهر في ذلك الوقت كان تأثيراً جارفاً، وكانت آراؤنا وأفكارنا متضادة، ولكن الذي كان يفصلنا أكثر من الأفكار هو ثيابي الفاخرة وعربتي الخاصة وقمصاني الناصعة البياض، وقام بذهني أني أسئ إليهم بما يبدو من مظاهر ترفي وبذخي، فأحس أمامهم أحساس المذنب.

ولم ألبث أن استرددت شجاعتي، وصرت أتردد كل مساء تقريباً على مسكن زوخين للدراسة والاستذكار، وكانت استفادتي محدودة جداً لأني كنت أفتقر إلى الأساس الضروري في كل مادة، فكنت أتصنع الاستماع والفهم لما يقولون، وخيل إلى أن رفاقي فطنوا إلى تمويهي.

ويوما بعد يوم أصبحت أستسيغ فوضى هذه الجماعة ويزداد ميلي إليهم، وقد وجدت فيهم جانباً شاعرياً، ولم يمنعني من قضاء ليالي القصف معهم إلا سابق وعدي لديمتري.

وذات مرة خطر لي أن أظهر معلوماتي في الأدب، ولاسيما الأدب الفرنسي، فوجهت الحديث إلى هذا الموضوع، وإذا بي اكتشف أن هؤلاء السوقة على الرغم من سوء نطقهم بلكنة روسية للمؤلفات والمؤلفين الفرنسيين، إلا أنهم قرءوا أكثر مما قرأت بكثير، ويعرفون فوق ذلك المؤلفين الإنجليز والأسبان ويقدرونهم قدرهم، أما ديما، وادبون سو، وفيفال، فكانوا عندهم من سقط الكتاب، ويمتاز زوخين على الخصوص بأحكام واضحة في الأدب ليس عندي لها مثيل.

وحتى الموسيقى لم يكن لي فيها امتياز عليهم، إذ اكتشفت ببالغ الدهشة أن أبيروف يحسن العزف على الكمان، وأن رفيقاً آخر يعزف البيانو، وكلهما يعرفان الموسيقى معرفة جيدة ويحسنان تذوقها.

وعلى الجملة كان في هؤلاء الرفاق علم وفضل كثير، أكثر جداً مما كنت أتشدق به، ومن غير زهو، فما الذي يفصل بيني وبينهم؟ وعلى أي أساس أنظر إليهم على أنهم دوني في شيء من الأشياء؟ لأنني أعرف الأمير ايفان ايفانتش؟ الاني أجيد النطق بالفرنسية؟ الآن لي عربة خاصة وحوذياً خاصاً؟ القمصاني الفاخرة؟ الأظافريالمشذبة؟

إلا أن هذه كلها لغو باطل، وكثيراً ما خطر ببالي أنها لا تساوي شيئاً بالقياس إلى روح الصداقة والبساطة التي لمستها في هؤلاء الناس، فكل منهم ينادي الآخر بغير تكليف، ومظهرهم بسيط لا يتكلفون له شيئاً، وهم في الوقت نفسه حريصون رغم خشونة ألفاظهم ألا يجرحوا شعور فرد من جماعتهم.

أن كلمة خنزير التي يتنادون بها كانت تزعجني، ولكنها كانت لا تعني فيما بينهم سوى كلمة تودد وملاطفة، والحقيقة أن الصلات فيما بينهم كانت رقيقة مهذبة، ذلك النوع من التهذيب الذي لا يكون إلا بين الشبان ذوي الخصاصة الشديدة.

على أن أعظم ما راعني في هؤلاء الرفاق هو شخصية زوخين المتعددة النواحي الجريئة، ومغامراته في ملهى لسبون، وخيل إلى أن تلك

الليالي الماجنة يجب أن تكون شيئاً مختلفاً تماماً عن الحفلة المخمورة التي أحرقنا فيها السكر في إناء الروم في بيت البارون "ز".

حصاد العام

وحل موعد الامتحان وأنا لم أزل في حالة الشرود الحالمة، وليس عندي أدنى إدراك واضح لما ينتظرني في ذلك الامتحان.

وكثيراً ما خطر لي بعد تمضية السهرة مع الرفاق في صحبة زوخين أن من الضروري إدخال تعديلات جوهرية على خطة حياتي وأفكاري، وأن موقفي من الحياة وشئونها غير سليم أو غير لائق، ولكن ما أن تشرق الشمس حتى أراني مرة أخرى كما ينبغي، وأشعر بالرضي الشديد عن نفسي ولا أجد أدنى رغبة في تغيير حياتي وأفكاري.

وبهذه الروح دخلت امتحاني الأول، واتخذت لي مكاناً في صف جلس به الأمراء والكونتاتوالبارونات، وشرعت أجاذبهم الحديث باللغة الفرنسية، ومن أعجب العجب أنه لم يخامرني الشك في أية لحظة في أنني سأنادي بعد قليل لأجيب عن أسئلة في موضوعات لا أعرف عنها شيئاً وحملقت ببرود شديد في أولئك الذين حضروا الامتحان، بل أني سمحت لنفسي أن أسخر من فريق منهم لما رأيته على وجوههم من أمارات الخوف، ووعدت صديقي البارون أن أتناول الغداء على مائدته في مطعم مارتن بمجرد الانتهاء من الامتحان، وكأن أداء الامتحان مسألة على جانب عظيم من التفاهة.

وعندما نودي اسمي مع ايكونين قمت وسويت ثيابي بيدي ثم اتجهت إلى مائدة الامتحان بكل هدوء وعدم اكتراث، ولم أشعر برهبة الموقف إلا عندما واجهت عيني الأستاذ الذي أديت أمامه امتحان الدخول ثم مددت يدي لاختار سؤالاً عن طريق القرعة.

وكانت إجابة ايكونين سيئة جداً، ولكنها إجابة على كل حال، أما أنا فجعلت أقلب الورقة ولا أجيب، ونظر الأستاذ إلى وجهي بإشفاق ثم قال لي بحزم:

– لن تنقل هذه المرة إلى السنة الثانية، ولا حاجة بك إلى التقدم في المواد الأخرى لأن رسوبك مكفول بعد إجابتك اليوم، وكذلك الحال معك يا سيد ايكونين.

وجعل ايكونين يتوسل ويستجدي فرصة أخرى، فقال الاستاذ:

– هراء! إنك لن تحصل في يومين ما فاتك أن تحصله في عام! أما أنا فنهضت عن المائدة صامتاً، ولا أذكر كيف شققت طريقي بين الطلبة ولا بماذا أجبت عن استفساراتهم، ولكن الذي أذكره أنني عدت إلى البيت مضعضع النفس من الهوان والشقاء.

ولم أغادر حجرتي ثلاثة أيام سويا، ألتمس العزاء في دموعي كما كنت أفعل صغيراً، وبحثت عن مسدس كي أقتل نفسي، وتصورت من أحتقرهم وقد نجحوا وسولت لهم نفوسهم أن يبصقوا في وجهي أو يشمتوا بي، وتذكرت جميع من أهانوني فيما مضى مثل كولبيكوف،

ورأيتهم على حق في احتقارهم لشأني، وجعلت ألعن أيامي.

ولم أجد في نفسي قابلية للاستمرار في الدراسة الجامعية بعد هذا الإخفاق المهين للذكاء، فطلبت من أبي أن يسعى لإلحاقي بسلاح الفرسان، وكان أبي ساخطاً على رسوبي، بيد أنه إزاء حزني وندمي غفر لي وعرض على دخول كلية أخرى.

وأما الفتيات فلم يفقهن شيئاً ولم يدركن لماذا حزنت، فهن لا يعرفن ما الامتحان، ولا ما الفشل، بيد أنهن رثين لاكتئابي.

وجعل ديمتري يحضر كل يوم لزيارتي ويبدي لي منتهى المودة والعطف، وكان ذلك كافياً لسخطي عليه، وعندما أبلغني رغبة والدته وأخته وخالته في ذهابي لزيارتهن وجدت في ذلك التلطف جرحا لكبريائي، ورفضت هذه الشفقة المهينة.

وهكذا ختمت مرحلة البلاهة في باكورة شبابي، وانتهت علاقتي بالدراسة الجامعية، بسبب ضعف أخلاقي وانصرافي عن الدرس، وكتب في سجل حياتي أنني كنت طالباً فاشلاً لم يصلح للعلم والثقافة.

وهكذا أفضى بي فشلي العلمي والثقافي إلى صفحة جديدة، هي التحاقي بخدمة الجيش ضابطاً في سلاح الفرسان، فلم يكن أمامي بعد أن قصرت في ميدان الكتاب والقلم، سوى أن أجرب امتشاق السيف.

الفهرس